البحث الحادى والعشرون

دعاء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

إعداد

د/ أبو زيد محمد على شومان

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في الكلية

لجنة التحكيم

أ.د / هاشم محمد هاشم عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د / أحمد عبد الجواد محمد عكاشة عضو اللجنة العلمية الدائمة

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد ،

فإن القرآن الكريم بتشريعاته المتوازنة شمل نواحي الحياة كلها ، فهو دستورها الهادي ، يعصمها من الزيغ والذلل ، ويجنبها الضجر والملل ، ويبعث فيها الدفء والأمل ، باتصالها بخالق الكون ، تستمد منه ـ تعالى ـ قوتها ، وتتجدد طاقتها وتنشئ روحها وروحانيتها ، في خضم الحياة المعقّدة ، والمشاكل المتراكمة المركبة التي يستعصي حلُّها ، ويعزُّ علاجها ، إلا بالاتصال الدائم بواهب الحياة ، ومقدِّر الأكوان ، وميسِّر سُبل المعاش .

والمتأمل لكتاب الله تعالى ، يجد للدعاء في القرآن الكريم مساحة عريضة ومنزلة رفيعة ، قد تعدّدت مقاماته وتلونت صِيغه وتنوعت دلالاته ، واختلف الدّاعون ما بين ملائكة أطهار ، ورسلٍ أخيار ، وأناس آمنوا بربهم واشتد إليه ـ تعالى ـ شوقهم ، فبسطوا أكف الضراعة يسألون ويضرعون .

ومع اختلاف المقامات والصيغ والدلالات والدُّعاة تجد هذه الدعوات في الأعم الأغلب تلتقي حول هدف واحد ، وهو استمداد العون والقوة والنُّصرة منه تعالى .

وفي المقابل تجد دعاءً على غير المألوف ، فليس فيه استمداد عون أو طلب نصر وإنما هو دعاء باستمطار العذاب ، واستعجال العقاب دونما خوف أو وَجَل ، أو رهبة أو حذر ، مما يلفت إليه النظر ، ويوجب التأمل ورجوع البصر .

وقد عنَّ لي أن أتأمل هذه المقامات الخيِّرة والشرّيرة ، وأقف عند دلالة الدعاء في القرآن الكريم ، استكشف معالمه ، واستخلص بعض نتائجه إذ أجدني بين بحورٍ متلاطمة ، وتلال غير متناهية ، يصعب الصعود إليها على فتّى العضلات ، ويثقل الغوص في بحارها على ماهر السباحة خبير بفن الرياضة ، فحدّثتني نفسي بالرجوع عن هذا المقصد ، وأرتني أن ليس كل مرنى ينال ، ولا كل عيان سهل المرام ، فرضخت قليلاً لعلمي بهذه الحقيقة ، ولكن بعد كرٍّ وفرٍّ وإقبال وإدبار ، رأيت من الخير أن ما لا يدرك كله لا يترك كله وأنّ قاصد الخير لا يخيب ، وهل في القرآن إلا

الخير !! وأيُّ خير بعد أن تعيش معه تذكر منه ما نُسِّيت ، وتعلم منه ما جهلت ، وتُرَقِّيَ الروح بهذه الومضات النورانية ، والقبسات الإلهية والتأملات المستنيرة والعيش مع أقوالٍ قيلت بعد كدٍّ ، وحيكت بعد أخذٍ وردٍ ، قبلها قُلِّبت الأمور على وجوهها ، ورُئِى غثها من ثمينها ، فأرونا عقولا غاية في الحصافة ، وأفكاراً قمة في اللطافة ، وآراءً بلغت المدى في التحليق والتدقيق ، وليس معنى هذا أنْ حُفَّت هذه العقول والأفكار بالعصمة ، وارتدت رداء الحُرْمة ، فالعقل البشري قابل لهذا وتلك ، موصوف بكليهما ، وكلٌّ يؤخذ من كلامه أو يُرَد ، ما عدا المعصوم ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقد اخترت دعاءً واحداً من بين هذه الأدعية القرآنية ، ليكون محل الدرس والنظر وهو " دعاء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في القرآن " حتى يتسنى النظر في أساليب هذا الدعاء باطمئنان ، لعلنا نصل إلى شيء ذي بال .

منهج البحث

ـ بعد المقدمة كانت طريقة السير في البحث كالتالي : ـ

ـ جمعت مواطن دعاء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم ، فوجدتها في خمسة مواطن هي :

الموطن الأول : في سورة البقرة الآيات : ١٢٦ ـ ١٢٨

الموطن الثاني : في سورة إبراهيم الآيات : ٣٥ ـ ٤١

الموطن الثالث : في سورة الشعراء الآيات : ٦٩ ـ ٨٩

الموطن الرابع : في سورة الصافات الآيات : ٩٩ ـ ١٠١

الموطن الخامس في سورة الممتحنة الآيات : ٤ ـ ٦

ـ هذه هي المواطن الخمسة التي وردت في القرآن الكريم لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يدعو ربه ، وهذه المواطن جاءت في سياقات مختلفة ، وتضمنت كثيراً من الدلالات المتعددة والمعاني المتنوعة وقف البحث عند كل موطن فيها على حدة ، وكانت الدراسة تحليلية تأملية ركّزت على الجانب الأسلوبي ، وما تضمنته من لمسات جمالية ـ وإشارات إعجازية .

ـ وقد برز في الموطن الأول بعد تحديد مطالب سيدنا إبراهيم عليه السلام في دعائه، حذف حرف النداء مع لفظ " ربِّ " ، وقد عللوا الحذف بأنه : " للتعبير عن شعور الداعي بقربه من ربه " وتأملت هذا السر فوجدته إن استقام مع دعاء الأنبياء والمرسلين والمؤمنين لا يستقيم مع دعاء الظالمين ، واعتذار المجرمين ، ونداء الكافرين ، وحاولت إبراز أسرار هذا الحذف في أمثال هذا الموطن متكئاً على السياق ، ثم عرضت لمتشابه النظم في هذا الموطن وما ينطوي تحته من دلالات ، وما يُفْهَم منه من فحاوى وإيحاءات .

وفي الموطن الثاني : جددت مطالب سيدنا إبراهيم في دعائه ، وذكرت سمات الأسلوب العامة ، أما السمات الخاصة للأسلوب فذكرت أن البحث لا يستطيع أن يحيط بها ، وإنما يذكر ما ظهر له منها ، وكان من بين الظواهر التي اشتمل عليها هذا الموطن :

أولاً : تعريف لفظ البلد هنا وتنكيره في سورة البقرة ، وذكرت أقوال العلماء ، ورفضت ما يرفضه السياق وترتيب النزول ، وقبلت ما يقبله السياق ويتماشى مع ترتيب النزول .

ثانياً : في سورة البقرة بعد الدعاء بالأمن للبلد دعا لأهلها بالرزق : " رَبِّ اجْعَلْ هَذَا

بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ " ، وفي سورة إبراهيم ، بعد الدعاء لمكة بالأمن طلب من ربه أن يجنِّبه عبادة الأصنام : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ " ، وذكرت أسرار ذلك متكئاً على السياق وأقوال العلماء .

ثالثاً : عرضت للبلاغة الإعجازية التي حوتها هذه الدلالات ، وما حمله الأسلوب من دقة الدلالة ، وعمق المراد .

وفي الموطن الثالث : ذكرت سمات الأسلوب العامة ، والسمات الخاصة كانت مناط الدراسة والتحليل ، وإبرازها انطوى عليه الأسلوب من بديع النظم ودقيق الاستعمال .

وفي الموطن الرابع : عرض البحث لخصائص النظم القرآني ، وما حواه من لفتات بلاغية كما عرض لوصف سيدنا إبراهيم بالحلم ، ودلالته ومقولة الزمخشري في ذلك والردّ عليه ، رضي الله عنه .

وفي الموطن الخامس : لفت البحث النظر إلى ظاهرتين ، الأولى : أن لفظ " أسوة حسنة " تكرر في القرآن الكريم ثلاث مرات ، مرة في سورة الأحزاب ، ومرتين في هذا الموطن ، وذكر أسرار ذلك متكئاً على أقوال المحققين من العلماء ، الثانية : تأنيث الفعل " كانت " مرة وتذكيره " كان " أخرى وأسرار ذلك ، ثم عرض لنظم الآيات ، وما حوته من نكات البلاغة ، واللفتات الخلّابة ، التي هي عنصر من عناصر النظم القرآني المعجز .

وإليك تفصيل القول في كل موطن على حدة .

ومن الله أستمد العون ، وأستلهم التوفيق .

الموطن الأول

جاء الموطن الأول من دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة في قوله تعالى :

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "

(الآيات : ١٢٦ ــ ١٢٨) .

في هذا الدعاء تتجلّى شخصية سيدنا إبراهيم الإنسان والرسول وكلتاهما لا تنفصل عن الأخرى ، فالدعاء مزيج مِنْ طلب أمور يصلح بها المعاش والمعاد وهي :

١ ــ طلب الأمن لمكة التي بها البيت الحرام " رب اجعل هذا بلداً آمناً " .

٢ ــ طلب أن يرزق أهله من الثمرات " وارزقهم من الثمرات " .

٣ ــ أن يتقبل عمله وابنه ــ عليهما السلام ــ في رفع القواعد من البيت " ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " .

٤ ــ أن يَثْبتا على إسلامهما وإخلاصهما لله تعالى ، ويترقيا فيه ، لأن مراتب الإخلاص متفاوتة فهما طلبا أن يحصل لهما مقام الإخلاص والرضى بالقضاء على سبيل الكمال " واجعلنا مسلمين " .

٥ ــ طلبا من الله تعالى أن يجعل بعض ذريتهما مسلمين موحدين " ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" .

٦ ـ طلبا أن يعرفهما ـ تعالى ـ أفعال الحج التي يحرم منها ، والمواضع التي يوقف فيها بعرفة ومزدلفة ، وموضع الطواف والصفا والمروة وما بينهما من السعي ورمي الجمار ، أو أنهما طلبا أن يعرفهما أفعال الحج لا مواضعها " وأرنا مناسكنا " [1] .

٧ ـ كما طلب التوبة لنفسه هضما لها وللمؤمنين العصاة ، من ذريته " وتب علينا " .

٨ ـ كما طلب من ربه أن يبعث رسولاً في الأمة المسلمة يعلمهم الكتاب وما فيه من المعاني والأسرار الدقيقة ، ويبين لهم ما فيه من الأحكام والدلائل .

هذه الدعوات جاءت في زيِّها القرآني المعجز ، وسَمْتها الإلهي البديع ، وقد أُدْرِك بعض أسرارها وخَفِي حُلُّها على الفكر الإنساني ، وسنحاول عرض شيء من هذا الجمال الإعجازي في هذا النظم العزيز، ومن السمات العامة في هذا الدعاء : تكرار لفظ " رب " أربع مرات ، مرة مضافاً إلى ضميره المفرد " رب اجعل هذا بلدا " ، وثلاث مرات مضافاً إلى ضمير" نا " الفاعلين " ربنا " في قوله " ربنا تقبل منا " ، " ربنا واجعلنا مسلمين " ، " ربنا وابعث فيهم رسولا " .

وذكر لفظ الجلالة " الله " مرة واحدة " من آمن بالله واليوم الآخر " .

كما ذُكر من صفاته تعالى : السميع ـ العليم ـ التواب الرحيم ـ العزيز الحكيم ، وسيأتي مدى مناسبة هذه الصفات لمواطنها .

وذُكر ضميره تعالى " أنت " ثلاث مرات ، وكاف الخطاب الراجعة إليه تعالى أربع مرات " إنك أنت العزيز الحكيم " ، " يتلوا عليهم آياتك " ، كما استتر الضمير الراجع إليه تعالى في قوله : " اجعل ... وارزق ... فأمتعه ... أضطره ... تقبل ... وأرنا ... وتب ... وابعث " ، فالدعاء يُظلل بأسمائه وصفاته تعالى ، وتكاد الكلمات لا تتكرر إلا باسمه تعالى أو بصفة من صفاته، أو بضمير يرجع إليه تعالى إما ظاهراً أو مستتراً ، وفي هذا غاية التضرع واللجأ إليه تعالى ، وذلك أدعى للقبول والإجابة .

---

(١) راجع حاشية الشيخ زاده على تفسير الإمام البيضاوي ١ / ٤٢٣ المكتبة الإسلامية ـ تركيا ـ بدون تاريخ .

وتجد الدعاء الأول " رب اجعل هذا بلداً آمناً " مصدراً بلفظ " رب " وفيه معنى التربية ، فهو القائم على شئون الخلق ، المتكفل بهم .

وكما يقول أبو حيان : " وناداه بلفظ الرب مضافاً إليه لما في ذلك من تلطف السؤال ، والنداء بالوصف الدال على قَبول السائل وإجابة ضراعته " (١) .

ولفظ " رب " منادى مضاف إلى الياء وحُذف منه حرف النداء والمضاف إلى الياء فيه لغات أحسنها : أن تحذف منه ياء الإضافة ويُدَلُّ عليها بالكسرة لأن النداء موضع تخفيف " (٢) .

يقول الدكتور أحمد بدوي : " وكثيراً ما يحذف حرف النداء في القرآن الكريم بل لا يكاد يُستخدم حرف النداء مع الرب بل ينادي مجرداً ، ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه ... " (٣) .

وتعليله لحذف حرف النداء بأنه للدلالة على قرب المكانة بين الداعي والمدعو لا يستقيم في كل المواطن التي حذف فيها حرف النداء مع لفظ " رب " نعم هو مستقيم في دعاء الرسل والأنبياء والمؤمنين ويصح أن يعلل بهذا التعليل ، أما في مواطن أخرى ، فيجب أن نبحث عن سبب آخر غير هذا السبب ، يتلاءم مع المقام ، فهو لا يستقيم في حكاية الله عن إبليس " رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ " (٤) .

أو مع دعاء الظالمين في قوله تعالى : " وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ " (٥) .

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١ / ٦١٢ ، بعناية صدقي محمد جميل ، دار الفكر ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

(٢) السابق .

(٣) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ص ١٦٨ ، دار نهضة مصر ، بدون تاريخ .

(٤) الحجر ٣٦ ـ ٤٠ .

(٥) السجدة ١٢ .

أو مع دعاء واعتذار المجرمين في قوله تعالى : "يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا " (١) .

أو مع نداء الكافرين في قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ " (٢) .

إن القول بأن حذف النداء مع لفظ " رب " هو الإشعار بقرب الداعي من مولاه ، لا يستقيم مع هذه الآيات وأمثالها ، ومن ثمّ ينبغي أن تنظر في كل موطن نظرة خاصة به ، لاسيما إذا علمنا أن أسرار الأساليب تختلف من موطن لآخر .

وربما يكون سبب حذف النداء في دعاء إبليس هو ما يعتريه من رهبة وخوف ـــ وإن كان معترضاً ـــ ولذا جاء الأسلوب غاية في الإيجاز " قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ " هكذا من دون ذكرٍ لأسباب الانتظار لأن هذا الحوار ليس حواراً بين حبيب وحبيبه ، كما في حوار سيدنا موسى ـــ عليه السلام ـــ مع ربه في قوله تعالى : " وما تلك بيمينك يا موسى* قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى " (٣) ولذا أطنب عليه السلام وأكثر الحديث وكان يكفيه جواباً عن قوله " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى " أن يقول " عصاي " ولكن " أجاب بأربعة أجوبة ثلاثة مفصلة " وهي عصاي أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمي ، والرابع " مجمل " ولي فيها مآرب أخرى " وكان يكفيه الأول منها ، ولكنه زاد في الجواب ، لأن المقام مقام خطاب الحبيب وهو يطلب فيه البسط " (٤) وقد عللوا الإجمال في الجواب الرابع بأمرين : إمّا

---

(١) الأحزاب ٦٦ ـــ ٦٨ .

(٢) غافر ١٠ ، ١١ .

(٣) طه ١٧ ـــ ١٨ .

(٤) حاشية الجمل ٣ / ٨٦ .

حياءً من الله تعالى لطول الكلام ، وإما رجاء أن يسأل عن تفصيله فيجيب بالتفصيل فيتلذذ بالخطاب " [1] .

والمهم أن طول الحوار ، وتعداد الأجوبة وتفصيلها وإجمالها ، إنما كان لأن سيدنا موسى نبيٌ مرسل ، عرف حرمة الذات العلية ، فخرّ صعقاً وقال : تبت إليك وأنا أول المسلمين : " قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ " [2] .

أما حوار إبليس ، فهو حوار معترض على خالقه ، وهو وإن كان معترضاً إلا أنه يعرف جلال الله وقيوميته ، ولكن أعماه ، وإنما هو حوار فيه معترض على خالقه ، وهو وإن كان معترضاً إلا أنه يعرف جلال الله وقيوميته ، ولكن أعماه التكبر ، فالرهبة والخوف من أسرار حذف النداء هنا .

أما حذف النداء في دعاء الكافرين ، فهذا الدعاء كما تراه إما أنهم موقوفون عند ربهم ناسكوا الرءوس ، يشعرون بالخزي والمهانة ، أو هم في النار تقلب وجوههم ، أو هم يطلبون الخروج من النار وهم يعلمون أن لا خروج ولا سبيل .

وهذه كلها مواقف تكشف عن نفسها ، وتظهر حال أصحابها من الألم والخزي والمهانة ، فكان حذف النداء لهذا السبب ـــ والله أعلم ـــ ولم تثبت أداة النداء في لفظ " رب " إلا في موطنين في سورة الزخرف في قوله تعالى : " وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلامٌ فسوف يعلمون " [3] ، وفي سورة الفرقان في قوله تعالى : " وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا " [4] ، وليس كما ذكر الدكتور أحمد بدوي : " وعلى كثرة ما نودي الرب في القرآن الكريم لم يُعْثَر عليه مسبوقاً بحرف النداء إلا في تلك الآية الكريمة " [5] ، وذكر آية الزخرف ويعلل سر إثبات حرف النداء في الآية الأولى بقوله : " وألمح في المجيء بحرف

---

(1) السابق .

(2) الأعراف : ١٤٤ .

(3) آيتا ٨٨ ـــ ٨٩ .

(4) الآية ٣٠ .

(5) من بلاغة القرآن د / أحمد بدوي ص ١٦٩ ، وراجع المعاني في ضوء أساليب القرآن للدكتور / عبد الفتاح لاشين ص ١٦٢ ، ط / أولى ١٩٧٦ م ، دار المعارف بمصر .

النداء هنا خاصة ، تعبيراً عن حالة نفسية ألَمّت بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أفرغ جهده في دعوة قومه ، وإنذارهم ، فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم ، فأطبق الهمُ على فؤاده ، وكأنما شعر بتخلي الرب عن نصرته ، وبُعْده عن أن يمدَّ إليه يد المساعدة فأتى بحرف النداء ، كأنما يريد أن يدفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله ، واستجلاب رضاه " [1] .

وما ذكره الدكتور بدوي ليس صواباً كله ، فإثبات حرف النداء تعبير عن حالة نفسية ألمت بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جراء دعوته لقومه وعنادهم وإعراضهم ، فألَمّ به شيء من الضيق عارض ، وفي حرف النداء مدّ ، يصاحبه خروج النفس لاسيما إذا كان هذا النداء شكوى وضراعة إلى الله ، وربما لهذا السبب لم يستعمل في القرآن من أدوات النداء إلا " يا " .

أما قوله : " وكأنما شعر بتخلّي الرب عن نصرته ، وبُعْدُه عن أن يمدَّ إليه يد المساعدة " فهذا مما لا يقبله مسلم وصفاً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضلاً عن باحث في أسرار كتاب الله تعالى ، أمثال الدكتور/ بدوي ، والآية الثانية تتفق مع الآية الأولى في سر إثبات حرف النداء ، فهي شكوى إلى الله تعالى من عناد قومه ، وتحجر قلوبهم وهجرهم للقرآن .

وفي تكرار لفظ " رب " أو "ربنا " إلحاح في الدعاء وثناء على الله تعالى واستعذاب هذا اللفظ الجليل في اللسان دلالة على كمال اليقين وإخلاص اللجأ إليه تعالى ، وذلك سبيل لإجابة الدعاء .

كما أن أصل استعمال ضمير" نا " إما أن يكون للمخاطب المعظم نفسه أو معه غيره ، والحالة الأولى لا تناسب مقام الدعاء إذ هو تذلل وتضرع يتنافى معه تعظيم النفس فيكون المقصود بقوله " ربنا " نفسه وقومه المؤمنين ، أو هي كلمة تقال من الداعي دونما نظر إلى تعظيم للنفس بل فيها تعظيم للرب فكأنه يقول أنت ربي ورب كل شيء ، وأنا عبد ذليل من بين مخلوقاتك التي أبدعت صنعها ، وهي شاهدة على عظمتك وربوبيتك وانفرادك بالألوهية ...

---

[1] من بلاغة القرآن للدكتور / أحمد بدوي ص ١٦٩ .

قال أبو حيان : " ولا يظهر تفاوت بين إضافة " رب " إلى ياء المتكلم وبين إضافته إلى جمع المتكلم"[1] .

كما تجد فعل الأمر " اجعل " مقصوداً به الدعاء ، فقاعدة الأمر إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى كان دعاءً لا أمراً على سبيل الحقيقة.

ثم هذا الإسناد المجازي في نسبة الأمن إلى البلد " اجعل هذا بلداً آمناً " لأن الأمن الذي هو صفة أهل البلد حقيقة قد أسند إلى مكانهم للملابسة بينهما ، كما أسند صفة القيام والصوم إلى زمانهما في قولك : نهاره صائم وليله قائم ، وفي هذا التعبير دلالة على أن الأمن تلبّس بالمكان حتى صار المكان كأنه هو الآمن لا أهله فحسب .

وفي هذا دلالة على رغبة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ القوية في انتشار وتحقق هذه الصفة في أهل هذه البقعة ، فإذا ما كان المكان آمناً حلّ الأمن بأهله بطريق الأولى ، بعكس ما لو كان أهل المكان آمنين ، فقد لا ينعكس هذا على المكان ، فربما يكون أمنهم ناشئاً عن قوتهم وامتداد سلطانهم ، وكثرة عتادهم ، وهذا لا ينعكس على المكان .

ولأن الأمن ليس مرتبطاً برغد العيش فقد يكون الآمن ذا حاجة وفقر أو كما يقولون : " إن الأمن من القحط يحصل بحصول ما يحتاج إليه من الأغذية من غير كد بليغ ، وهو لا يستلزم التوسعة بحصول الفواكة والثمرات " [2] فقد طلب ـ عليه السلام ـ التوسعة العظيمة عليهم بقوله : " وارزق أهله من الثمرات " واختيار لفظ " الثمرات " دون الحبوب ، لما في تحصيلها من الذل الحاصل بالحرث وغيره ، فاقتصاره على الثمرات لتشريفهم " [3] .

والتعريف في " الثمرات " تعريف الاستغراق وهو استغراق عرفي أي : من جميع الثمرات المعروفة للناس ، ودليل كونه تعريف الاستغراق مجيء " من " التي للتبعيض [4] وفي هذا دعاء لهم بالرفاهية حتى لا تطمع نفوسهم للارتحال عنه " [5] .

---

(1) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٤٤٩ .
(2) حاشية الشيخ زاده ـ ١ / ٤١٧ .
(3) حاشية الجمل على تفسير الجلالين ١ / ١٠٥ ، مطبعة الحلبي ـ من دون تاريخ .
(4) جعل " من" للتبعيض لا يُظهر معنى ما سبق بل يكون الكلام متناقضاً فكيف تكون من للتبعيض ويقول : من جميع الثمرات المعروفة للناس، ولو جعلت جنسيه لكان أنسب وأظهر .
(5) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١ / ٧١٥ ـ بدون .

ثم هذا التخصيص بعد التعميم في قوله " وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر " فقد سأل الرزق لأهل الحرم عامة ثم خصصه بقوله " من آمن منهم بالله واليوم الآخر " فكأنه قال وارزق المؤمنين من أهله خاصة ، تأدبا مع الله إذ كيف يطلب الرزق للكافر ؟ أو لعله خشي أنه لو سأل الرزق لكافة أهل مكة من المؤمنين والكافرين لكان ذلك منه بمنزلة طلب المعونة على ما هم عليه من الكفر والعصيان ، فسلك سبيل التخصيص بعد التعميم حذراً من ذلك [1] وعلى هذا فإن قوله " ومن كفر " من مقول الله تعالى ، ويكون عطفه على قوله " من آمن " من قبيل عطف التلقين [2] .

وأقرب إلى تناسق النظم القرآني أن يكون قوله " ومن كفر " عطفا على محذوف أي : قال وأرزق من كفر بلفظ الخبر حتى يكون المعطوف والمعطوف عليه مقول واحد[3] .

وفي هذا التعبير " قال ومن كفر" إيجاز بالعطف على محذوف أي وأرزق من كفر ، عُلم منه أنه تعالى استجاب دعاء إبراهيم في المؤمنين فجعل لهم هذا الخير في الدنيا وأعدَّ لهم ما هو أفضل منه في الآخرة [4] .

وفي الإخبار عن رزق الكافر فإن الأسلوب حوى التهديد والوعيد " قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير " ، فوصف التمتع بأنه قليل ، والمتعة إن كانت قليلة من ناحية ، ومنقطعة من ناحية أخرى كما يفهم من الأسلوب ، فلن تكون سببا لاطمئنان النفس وهدوء القلب ، وإنما تكون كذلك عند كثرتها ودوامها ، وهذا ما لا يحدث إلا في الآخرة حيث النعيم الكثير الدائم ، ولعل في هذا دعوة إلى عدم الركون للرزق المادي والمتعة الحسيَّة ، وإنما يجب

---

(١) حاشية زاده ـ ١ / ٤١٨ .

(٢) كل موضع يكون أحد المعطوفين مقول واحد والآخر مقولا لآخر فالعطف الذي فيه عطف تلقين ، كأنه تعالى لقّن إبراهيم عليه السلام أن يعمم سؤال الرزق ويسأله في حق المؤمن والكافر جميعا ، راجع : حاشية زاده ـ ١ / ٤١٨ وحاشية الجمل ١ / ١٠٦ .

(٣) راجع : حاشية زاده ـ ١ / ٤١٨ وابن كثير ١ / ١٧٦ ـ دار المنار ـ من دون تاريخ .

(٤) تفسير القرآن الحكيم الشهير ب " تفسير المنار " للأستاذ محمد رشيد رضا ١ / ٤٦٥ ـ دار المعرفة بيروت ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م .

وصل النفس بالرزق الإيماني والحياة الوارفة في ظلّ توحيد الله والانقياد لأوامره ففي ذلك المتعة الدائمة .

ولفظ " أضطره" وما فيه من الثقل في النطق يوحي بما يحمله من معنى الشدة والقوّة والقَسْر والإلجاء ، ولذا تجد المفسرين يختارون لتفسيره مرادفات تحمل هذا المعنى ، وإن كانت لا تصل إلى ما يحمله هذا اللفظ فتراهم يقولون " معناه " ألجئه " [1] أو يقولون " ألزّه إلى عذاب النار لَذّ المضطر الذي لا يملك الامتناع مما اضطر إليه " [2] والاضطرار اختيار أخف الضررين كأنْ يكره الإنسان على شرب الخمر والقتل فيختار أيسرهما وهو شرب الخمر ، ولما كان لاشيء أشد من عذاب النار حتى يكره الكافر على اختياره ، جعلوه من قبيل الاستعارة حيث شُبهت حالة الكفار المذكورة ، بحالة من لا يملك الامتناع مما اضطر إليه فاستعمل في المشبه ما استعمل في المشبه به [3] .

ويتنامى التهديد ، ويزداد الوعيد فالإلجاء والاضطرار إلى " عذاب النار " وهذا اللفظ يصف نفسه ، ويحكي حالة ، والمخاطبون يدركون ما ينطوي تحت هذا اللفظ ويحسُّون وقعة ، ولكن يأتي قوله " وبئس المصير " ذمّاً لهذا المكان ، وتقبيحاً لمن كان مثواه فتكتمل الصورة ويتم المشهد ، مشهد الرعب والإلجاء والنار والإحراق، وبئس هذا مثوى ومقيلا .

ثم يأتي التعبير بالمضارع عن الماضي في قوله : " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل " فكأن المخاطب يراه على وجه العيان ، تراه الأعين تصويراً لا تعبيراً " وإذ يرفع " لذا يطلق على أمثال هذا النوع " حكاية حال ماضية " فهي وقعت في الماضي ولكن التعبير يصورها ماثلة شاخصة في الحال ومستمرة ، ولو أمعنت النظر في التعبير لربما تخيّلت حركة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ وهما في حال البناء وكأنك ترى حركة الذهاب هنا وهناك للإتيان بما يتطلبه البناء ورأيت أحدهما منحنياً يتناول شيئاً ثم يلقيه للآخر، والآخر يمد إليه يده ، ثم يبتعد أحدهما عن الآخر مرة ويقترب أخرى ، وها هما يجيئان ويذهبان ، يقفان مرة وينحنيان أخرى

---

(1) تفسير السيوطي بما من حاشية الجمل ١ / ١٠٦ ـــ الحلبي من دون تاريخ .

(2) الكشاف للزمخشري ١ / ٣١٠ ـــ دار الفكر ـــ من دون تاريخ .

(3) راجع حاشية زاده ـــ ١ / ٤١٨ وحاشية الجمل ١ / ١٠٦ وحاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ١ / ٢٣٧ ضبط وتخريج : الشيخ عبد الرزاق المهدي ـــ دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١٧ هـ ـــ ١٩٩٧ م .

ويجلسان ثالثة ، فالحركة دائمة ودائبة والعمل متواصل والجهد مبذول ، فالبيت كأنه لم يتماثل للارتفاع بعد وإنما هما مازالا يرفعان البناء بجهد وحركة مستمرة .

ثم هذا البيان بعد الإبهام في قوله : " القواعد من البيت " والعدول عن : قواعد البيت ، وهو لون يسلك عند قصد تفخيم شأن المبيَّن مع ما فيه من الإيجاز ، فذكر القواعد هكذا مبهمة ، ينبه الذهن ويحركه إلى طلب معرفة القواعد ما هي ؟ وقواعدي أي شيء هي ؟ فإذا جاء البيان بعد ذلك كان أحسن موقعاً في النفس وأشد تمكناً في الذهن (١) .

وأما النكتة في تأخير ذكر إسماعيل عن ذكر المفعول مع أن الظاهر أن يقال : " وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت " فهي : الإلماع إلى كون المأمور من الله ببناء البيت هو إبراهيم ، وإنما كان إسماعيل مساعداً له ، وقد ورد أنه كان يُناوله الحجارة (٢) .

وقوله : " ربنا تقبل منا " في موقع الحال منهما ــ عليهما السلام ــ فمع صنيعهما العالي الشأن ، الغاية في التقرب إلى الله تعالى ، يتضرعان إليه ــ تعالى ــ أن يتقبل منهما مع علو شأنهما وكمال امتثالهما .

ثم اختيار لفظ " تقبّل " دون " القبول " فإن التقبُّل لكونه على بناء التكلّف إنما يطلق حيث يكون العمل ناقصاً لا يستحق أن يقبل إلا على طريق الفضل والكرم ، ولفظ القبول لا دلالة فيه على هذا المعنى واختيار لفظ " التقبل " اعتراف منهما بالعجز والانكسار والقصور في العمل ، ويمكن أن يراد من التقبل الرضا فقط دون الإثابة لأن غاية ما يقصده المخلصون من الخدم وقوع أفعالهم موقع القبول والرضا عند المخدوم وليس الثواب ، ولعل هذا هو الأنسب بحال الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام (٣) .

ثم ترك مفعول " تقبل " مع ذكره في قوله تعالى : " رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ " ليعم الدعاء وغيره من القُرَب والطاعات التي من جملتها ما هما بصدده من الثناء (٤) .

---

(١) راجع : الكشاف ١ / ٣١١ ، وزاده ١ / ٤٢٠ ، والشهاب٢ / ٣٨٩، وتفسير المنار ١ / ٤٦٩ .

(٢) راجع تفسير أبي السعود ١ / ٢٥٩ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مطبعة السعادة بمصر من دون تاريخ ، وتفسير المنار ١ / ٤٦٩ .

(٣) راجع : حاشية الشيخ زاده ــ ١ / ٤٢٢ ، والبحر المحيط ١ / ٦٢٠ ، والرازي ٢ / ٤١٥ ، والألوسي ٢ / ١٥٢ ت : طه عبد الرءوف سعد ــ دار الغد العربي ط / أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

(٤) تفسير أبي السعود ١ / ٢٥٩ .

ثم يأتي قوله : " إنك أنت السميع العليم " وهاتان صفتان مناسبتان هنا غاية التناسب ، إذ صدر منهما عمل وتضرع وسؤال ، فهو السميع لضراعتهما وتسآلهما التقبل ، وهو العليم بنيآهما في إخلاص عملهما ، وتقدمت صفة السمع ، وإن كان سؤال التقبل متأخراً عن العمل للمجاورة ... وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة ولعمومها إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات [١] .

وقوله : " إنك أنت السميع العليم " أسلوب قصر بتعريف الخبر والإتيان بضمير الفصل " أنت " ليؤكد القصر ويقويه ، وقد قُصر تعالى على صفتي السميع العليم ، مبالغة في إثبات سمعه وعلمه تعالى وهو قصر موصوف على صفة يستعمل عند إرادة إبراز هذه الصفة وظهورها في الموصوف ، وأوثر هذا التعبير لإرادة إبراز سمع الله وعلمه تعالى ، وقد سبق أن هاتين الصفتين مناسبتان تمام المناسبة .

ثم هذا الاعتراف بنعمة الله عليهما بالإسلام وطلب الثبوت والدوام عليه في قوله : " ربنا واجعلنا مسلمين لك " ونظير ذلك قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا آمنوا " [٢] ، " يا أيها النبي اتق الله " [٣] ، لأنهما كانا مسلمين قبل صدور هذا الدعاء منهما فوجب أن يحمل على طلب الثبات والاستمرار على الإسلام والزيادة فيه ، وهما عليهما السلام أعرف بمكر الله تعالى وأعرف بأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وهو أسلوب يفيد القصر، أي : نكون مسلمين لك لا لغيرك ، وهذا يدل على أن كمال سعادة العبد في أن يكون مسلماً لأحكام الدين وقضائه وقدره [٤] .

ثم هذا الدعاء للذرية وتخصيصهم به " ومن ذريتنا أمة مسلمة لك " فهما ــ عليهما السلام ــ قد راعيا حق البنوّة من الشفقة عليهم والحرص على ما يعود عليهم بالنفع في الدنيا والآخرة ، إذ بالإسلام يعصم الإنسان نفسه من أهوال الدنيا فضلاً عن أهوال الآخرة ، وفي إسلام بعض الذرية النَّبوية سبب لصلاح العامة إذ في القدوة أكثر الأثر على الطاعة والعبادة [٥] .

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١ / ٦٢٠ .

(٢) النساء ١٣٦ .

(٣) الأحزاب ١

(٤) راجع الرازي ٢ / ١٢٠ ، وحاشية الشهاب ، الخفاجي ٢ / ٣٨٩ .

(٥) راجع زاده ــ ١ / ٤٢٣ .

وقوله " وتب علينا " فيه هضم النفس والتذلل ، وهو ركن العبادة ، والأنبياء والرسل لأنهم أعرف الناس بعظمة الله تعالى لا يبرؤن أنفسهم من التقصير بل يتهمونها دائماً ، وليس معنى " تب علينا " أن التوبة سبقتها معصية كما هو المتعارف ، فمع الرسل والأنبياء ينبغي ألا يرد هذا الخاطر ، لأن أمر العقيدة والتوبة والترقي شُغلهم الشاغل في أنفسهم وأممهم ، فهم لا يتفاخرون بما هم عليه بل يطلبون المزيد مع بلوغهم الغاية ، يقول السيوطي : " سألاه التوبة مع عصمتهما تواضعاً وتعليماً لذريتهما " [1] .

ويمكن أن يوجه الأسلوب على حذف مضاف تقديره : على ذريتنا ، أو على أن ينسب الأب المشفق زلات أولاده وفروعه إلى نفسه عند اعتذاره عنهم وشفاعته في حقهم فيقول : أذنبت وأجرمت فاقبل عذري وتجاوز عني ، ومراده: أذنب ولدي فإن أولاد الإنسان تجري مجرى نفسه[2].

والنظم يحتمل المعنيين فمع ما في المعنى الأول من هضم النفس والهمة العالية فإن المعنى الثاني يكشف عن حرص الأنبياء على العقب والذرية ، فكما دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه أن يجعل الحرم آمناً وأن يرزقهم من الثمرات ، دعواه هنا أن يتوب عليهم ، ولكن يبقى المعنى الأول أليق بالنظم القرآني ، ويعكر على المعنى الثاني هذا التقدير الذي لا حاجة إليه مع تلازم النظم ، واتساق المعنى .

ثم يذيل هذا الدعاء بالثناء على الله تعالى ويختار من صفاته تعالى صفتي التواب الرحيم " إنك أنت التواب الرحيم " وفي الأسلوب تعريف الخبر والإتيان بضمير الفصل وهذا يفيد القصر أي : أنت وحدك الكثير التوْب على عبادك ، وإن كثر تحولهم عن سبيلك ، بتوفيقهم للتوبة وقبول توبتهم ، وهاتان الصفتان مناسبتان لأنهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين ، ومن ذريتهما أمة مسلمة ، وبأن يريهما مناسكهما ، فناسب ذكر التوبة عليهما ، والرحمة لهما ، وناسب تقديم ذكر التوبة على الرحمة مجاورة الدعاء الأخير في قوله " وتب علينا " وتأخرت صفة الرحمة لعمومها ، لأن من

---

(1) السيوطي بهامش حاشية الجمل ١ / ١٠٧ ، وراجع حاشية زاده ـ ١ / ٤٢٤ .

(2) راجع حاشية زاده ـ ١ / ٤٢٤ ، والرازي ٤ / ٥٨ .

الرحمة التوبة ، ولكنها فاصلة ، والتواب لا يناسب أن يكون فاصله هنا لأن قبلها " إنك أنت السميع العليم " وبعدها " إنك أنت العزيز الحكيم " [1].

ثم يتمم سيدنا إبراهيم دعاءه لأهل الحرم بقوله : " ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزيكيهم إنك أنت العزيز الحكيم " .

وقد وصف هذا الرسول بكثير من الصفات أولاها : قوله " منهم " لتكتمل شفقته وعطفه عليهم ، وليكون أرفق بهم ، ولذا تجد هذا التعبير أو ما يشبهه يكثر في حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمرة يوصف بأنه منهم كما هنا ، ومرة يوصف بأنه " من أنفسهم " كما في قوله تعالى : " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ " [2] .

وكما في قوله تعالى : " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ " [3] .

وكلا التعبيرين يوحي بما سبق ، ويُغري القوم باتباعه ، فإذا كان الرسول المرسل منهم ومن بني جلدتهم ، وإذا كان الرسول المرسل من أنفسهم ، لاشك أنه سيتخيَّر لهم ما ينفعهم ، ويبعد عنهم ما يضرهم فأمرهم بهمه كما يهمه أمر نفسه ، فيكون هذا دافعاً لهم ، وحافزاً على اتباعه وموافقته ، لعلمهم بحدبه عليهم ، وشفقته بهم .

وقد فَرق العلماء بين التعبيرين ، واستشفوا من كل تعبير معنى ، يقول الغرناطي : " إن قولك : فلان من أنفس القوم ، أوقع في القرب والخصوص من قولك : فلان منهم ، فإن هذا قد يراد للنوعية ، فلا يتخلص لتقريب المنزلة والشرف إلا بقرينة ، أما " من أنفسهم " فاخص ، فلا يفتقر إلى قرينة ، ولذلك وردت حيث قصد التعريف بعظيم النعمة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمته ، وجليل إنفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم ، فقال تعالى : " لقد جاءكم

---

(1) راجع تفسير المنار ١ / ٤٧٢ ، والبحر المحيط ١ / ٦٢٥ .

(2) آل عمران ١٦٤ .

(3) التوبة ١٢٨ .

رسول من أنفسكم " [1] ، وقال تعالى فيمن كان على الضد من حال المؤمنين المستجيبين : " ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه " [2] ، فتأمل موقع قوله هنا " منهم " لما قصد أنه إنعام عليهم لم يوفقوا لمعرفة قدره ، ولا للاستجابة المثمرة النجاة فقيل هنا منهم " [3] .

فلما كان القصد التعريف بعظيم النعمة بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قيل " من أنفسهم " كما في سورة آل عمران والتوبة ، ولما كان القصد إلى بيان كفر من كفر ، وعدم الاعتراف بالنعمة والاستجابة ، والإيمان بما قيل " منهم " كما في آية النحل " ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه " ولفظ " كذبوه " يقوي هذا الفهم ويدعمه ، وكما في سورة الجمعة " هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم " فإن لفظ " الأميين " يعم العرب من أسلم ومن لم يسلم فكان لفظ " منهم " مناسباً للفظ " الأمين " أما في سورة آل عمران ، فإنه لما قال " لقد من الله على المؤمنين " فخصَّ من أسلم ، ناسب ذلك قوله " من أنفسهم " [4] .

ـ وفي سورة البقرة تقديم " ويعلمهم الكتاب والحكمة " وتأخير " ويزكيهم " وفي آل عمران تقديم " ويزكيهم " وتأخير " ويعلمهم الكتاب والحكمة " ومثلها في الجمعة " هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " ، وقد حاول العلماء أن يجدوا سراً لهذه المغايرة فقالوا : إن آية البقرة لما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضلال في الذرية المدعو لها ، وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقع وقوعه بما يمنحونه من التعليم ، وما يتلى عليهم من الآيات ، لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية ، والسلامة من الضلال إذ وفقوا للانقياد له ... فتأخَّر ذكر التزكية المسببة عما به تحصل وذلك

---

(1) التوبة : ١٢٨ .

(2) النحل : ١١٣ .

(3) ملاك التأويل للغرناطي ١ / ٣٢١ ت : سعيد الفلاح ط أولى ١٩٨٣ م ـ ١٤٠٣ هـ ، دار الغد الإسلامي ، وراجع : البرهان للكرماني ص ٤٩ ت : عبد القادر عطا ـ ط أولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان .

(4) راجع ملاك التأويل ١ / ٣٢٣ .

بعد هدايتهم للإيمان ، فجاء على الترتيب من بناء المسبب على سببه [1] .

فآية سورة البقرة جاءت على الترتيب الطبعي من بناء المسبب على سببه ، لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه ثم العلم تحصل به التزكية وهي في العمل بإرشاد القرآن [2] .

أما في آية آل عمران والجمعة فقد قدم " ويزكيهم " وأخر " ويعلمهم الكتاب والحكمة " لأن المقصود ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان قد وجد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام ، فأخر تعليم الكتاب والحكمة ليكون تلوه ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وامتن عليهم [3] .

ويُوصَف ثانياً بقوله : " يتلوا عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة " فمن وظائف هذا الرسول المبعوث إليهم أنه يتلو عليهم ألفاظ القرآن ليضبطوه ويحفظوه ويكون مصوناً من التحريف ، ويعلمهم ما فيه من المعاني والأسرار ، ويبين لهم ما فيه من الدلائل والأحكام [4] .

ويلاحظ في الأسلوب أن تلاوة الآيات عليهم وتعليمهم الكتاب والحكمة وسيلة غايتها تطهير النفوس من الرذائل ، وتحليها بالفضائل " ويزكيهم " وأيضاً فإن كل واحدة من تعليم الكتاب والحكمة وسيلة بالنسبة لما ذكر بعده وغاية بالنسبة لما ذكر قبله ، فانظر إلى هذا الترتيب الحسن كيف بدأ أولاً بقوله : " يتلوا عليهم آياته " ثم ثنّى بقوله " ويعلمهم الكتاب والحكمة " ولا يكون تعليم الكتاب والحكمة إلا بعد ضبطه وحفظه ثم ثلّث بقوله " ويزكيهم " وهذه ثمرة التلاوة والتعليم ، كما جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها ، لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه ... ثم العلم تحصل به التزكية وهي العمل بإرشاد القرآن [5] .

---

(1) ملاك التأويل للغرناطي ١ / ٢٣٦ .

(2) راجع التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ـ المجلد الأول ١ / ٧٢٣ .

(3) ملاك التأويل للغرناطي ١ / ٢٣٦ .

(4) راجع حاشية الشيخ زاده ـ ١ / ٤٢٤ .

(5) راجع : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١ / ٧٢٤ .

ويلاحظ أيضاً أن هذا المبعوث وُصف بقوله " رسولاً " وهو مفرد ثم بقوله " منهم " وهو شبه جملة ثم أتبعه بالجملة في قوله : " يتلوا عليهم آياته ... " وهذا ما يقول به النحويون إذ يرون أن الترتيب الطبعي للجملة أن يتقدم المفرد ثم شبه الجملة ثم الجملة إلا إذا اقْتضى المقام غرضاً آخر .

ثم يختم سيدنا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء بالثناء على الله تعالى في قوله : " إنك أنت العزيز الحكيم " هكذا بتعريف الخبر والإتيان بضمير الفصل " أنت " ، وهو أسلوب يفيد القصر حيث قصره تعالى على صفتي العزيز الحكيم وهو قصر موصوف على صفة يُستعمل عند إرادة إبراز هذه الصفة وظهورها في الموصوف وأُوثر هذا التعبير لإبراز عزة الله وحكمته ، فَالعزيز هو الغالب الذي لا يعجزه شيء ، والحكيم هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء ولذلك جُعل هذا الثناء المذكور تذييلاً لما ذكر من الدعوات فإن من كان في العلم والقدرة بهذه المثابة يصح منه إجابة الدعاء وبعث الرسول وإنزال الكتب ، وغيره مما يقتضيه علم المحيط وقدرته البالغة [1] .

كما أن هذا القصر من قبيل القصر الحقيقي المجازي ، وفيه نجد أن المقصور وهو الله تعالى يتصف بهاتين الصفتين ، ولا يتصف بهما أحد غيره على الحقيقة ، وإن كانت هاتان الصفتان توجد في البشر إلاّ أنّ عزة الله وحكمته تختلف عن عزة وحكمة البشر، فنزلت هاتان الصفتان في البشر منزلة العدم ، وشبيه بهذا الأسلوب قوله تعالى السابق" إنك أنت السميع العليم " ، " إنك أنت التواب الرحيم ".

وقد ذكر صاحب المنار سرّاً لتذييل الآية بهذين الوصفين قائلاً " والسر في ذكر هذين الوصفين هنا إزالة ما ربما يعلق بالذهن أو يسبق إلى الوهم من أن هذه الأمور التي دُعي بها للعرب منافية لطبائعهم ، بعيدة من أحوالهم ومعايشهم فإنهم جمدوا على بداوتهم وأَلِفُوا غلظتهم وخشونتهم ، فهم أعداء العلم والحكمة ، خصماء التهذيب والتربية ، لا يخضعون لنظام ، ولا يؤخذون بالأحكام ، ولا استعداد فيهم للمدنية والحضارة التي هي أثر تعليم الكتاب والحكمة ، وتزكية أفراد الأمة ، فكان يُتوقع أن يقول قائل : من يقدر أن يغير طباع هذه الأمة ، المعروفة بالخشونة

---

[1] راجع : حاشية الشيخ زاده ـ ١ / ٤٢٥ .

والقسوة ، فيجعلها من أهل العلم والمدنية والحكمة ؟ لولا أنْ علم أن المدعو والمسؤول ، هو العزيز الذي لا مردَّ لأمره ، والحكيم الذي لا غالب لحكمه " [1] .

وما ذكره صاحب المنار استنباط معقول ، يُفهم ضمناً من تذييل الآية : " إنك أنت العزيز الحكيم " ويفهم منه أيضاً : أن المدنية إذا لم تكن مستمدة من نظام العزيز الحكيم ، مستهدية به ، فإنها تصير وبالاً على الناس ، وتحطيماً لفطرتهم ، وذرعاً للفساد الذي يأتي على هذه الحضارات ، فينخر في عظامها حتى تصير أثراً بعد عين .

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ١ / ٤٧٣ .

الموطن الثاني

دعاء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في سورة إبراهيم

جاء الموطن الثاني في قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ" (إبراهيم ٣٥ ـ ٤١) .

وهذا الدعاء من سيدنا إبراهيم عليه السلام تضمن تسعة مطالب :

أولاً : طلب الأمن لمكة التي بها البيت الحرام : " رب اجعل هذا البلد آمناً " .

ثانياً : طلب تثبيته عليه السلام ، وبنيه من صلبه على دوام اجتناب عبادة الأوثان : " واجنبني وبني أن نعبد الأصنام " .

ثالثاً : همّه أمر هذه الأوثان التي فتنت خلقاً كثيراً من الناس فتبرأ منها ومن عُبَّادها وردَّ أمرهم إلى الله تعالى إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم في قوله : " رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ... " .

رابعاً : اختار المكان الذي يستطيعون فيه إقامة شعائر الله دونما نظر إلى جدبه وقحطه في قوله : " ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة " .

خامساً : طلب من ربه أن تحنَّ القلوب إلى هذا المكان الذي أسكن فيه أهله " فاجعل أفئدة من

الناس تهوي إليهم " .

سادساً : طلب من ربه أن يرزقهم من الثمرات من غير كد وتعب حتى يكون ذلك عوناً لهم على الطاعة والعبادة " وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " .

سابعاً : الثناء على الله تعالى بين الدعاء في قوله : " ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء " ثم عقبه بحمده وإظهار منّته في أن وهب له الولد " على الكبر " في قوله : " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء " .

ثامناً : عاود سيدنا إبراهيم عليه السلام سؤال ربه أن يوفّقه وبعض ذريته لإقامة الصلاة ، والمداومة عليها ، وأن يتقبل عبادته في قوله : " رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" .

تاسعاً : استغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين في قوله : " ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب " .

هذه دعوات سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومطالبه في هذه الآيات وبالنظر في السمات العامة في الأسلوب نجد أن الثناء على الله تعالى تخلل هذا الدعاء كثيراً حيث تكرر لفظ " رب " تسع مرات أربع منها مضافاً إلى ضمير سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قوله : " رب اجعل هذا البلد ... رب إنهن أضللن ... إن ربي لسميع الدعاء* رب اجعلني مقيم الصلاة ... " ، وخمس منها مضافاً إلى ضمير " نا " الفاعلين ، في قوله : " ... ربنا إني أسكنت ... ربنا ليقيموا الصلاة ... ربنا إنك تعلم ... ربنا وتقبل... ربنا اغفر ... " ، وقد سبق الحديث عن ذلك في الموطن السابق .

كما تكرر لفظ الجلالة مرتين في قوله : " وما يخفى على الله .. الحمد لله الذي وهب .. " كما ذُكر من صفاته تعالى : " الغفور الرحيم " " سميع الدعاء " كما ذكر ضميره تعالى الظاهر " كاف الخطاب" مرتين " فإنك " " إنك " واستتر ضمير الجلالة في تسع مواطن في قوله : "...

رب اجعل ... واجنبني ... فاجعل ... وارزقهم ... تعلم ... وهب ... وتقبل ... اغفر ... " .

كما وصف سيدنا إبراهيم ربه بأنه يعلم ما يخفي وما يعلن ، وأكد هذا الوصف بتكريره مع اختلاف في الصياغة : " ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء " كما حمد ربه على منّته عليه بالولد في حال الكبر ، وفي هذا تعليم للعباد كيف يمزجون أدعيتهم بالثناء على الله تعالى حتى يكون حرياً بالإجابة والقبول .

كما أن سيدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ كرر لفظ " بني " و " ذريتي " ثماني مرات ثلاثاً منها بالاسم الظاهر " ــ بني ــ ذريتي ــ ومن ذريتي " وخمساً بالضمير في قوله " ليقيموا... تهوي... إليهم وارزقهم.... لعلهم يشكرون " وفي هذا دلالة على شدة شفقته عليهم وعنايته بهم ، ولمعرفته عليه السلام بقيمة العناية بالأبناء والذرية ، فهم الذين يخلفونه ، ويحملون اسمه ، فبصلاحهم تصلح الأمة " لأن صلاح أولاد الأنبياء سبب لصلاح العامة فكأنه قال : وأصلح عامة عبادك ، بإصلاح بعض ذريتي "[1] .

هذه هي السمات العامة التي ظهرت لي في هذا الدعاء ، والتي جعلته نموذجاً كاملاً يحتذي به في التضرع والالتجاء إلى الله تعالى ، يقول صاحب الظلال : "... والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء إبراهيم ــ عليه السلام ــ الذي يظلل سمته هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران ومن ثمّ يأتي السياق في مشهد خاشع يُظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ، ويتجاوب فيه الدعاء في نغمة رخيّة ، متموِّجة ذاهبة في السماء ..."[2] .

أما السمات الخاصة فلا يستطيع البحث أن يحيط بها ، وإنما يذكر ما ظهر له منها :

---

(1) حاشية الشيخ زاده ــ ١ / ٤٢٣ .

(2) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٤ / ٢١٠٨ دار الشروق ط ١٣ ــ ١٩٨٧ م ١٤٠٧ هـ .

فمنها : أن الدعاء الأول في قوله " رب اجعل هذا البلد آمنا " هو نفسه ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى : " رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات " وتلحظ في الدعاءين ظاهرتين ، الأولى : تنكير" بلداً " في سورة البقرة وتعريفها هنا " البلد" والثانية : في سورة البقرة بعد الدعاء بالأمن للبلد دعا لأهلها بالرزق " وارزق أهله من الثمرات " وهنا بعد الدعاء للبلد بالأمن طلب من ربه أن يجنبه وبنيه عباده الأصنام " واجنبني وبني أن نعبد الأصنام " .

أما الظاهرة الأولى فقد ذكر العلماء أسرار التعريف والتنكير فقالوا : ونكّر البلد ـ في سورة البقرة لأن الدعوة كانت قبل جعل المكان بلداً فطلب من الله تعالى أن يجعل ويحصل بلداً وفي سورة إبراهيم كانت بعد جعله بلداً [1] .

ويوضحون هذا المعنى بهذا المثال : فلو أنك قلت : اجعل هذا خاتما حسنا فقد أشرت إلى المادة وطليت أمرين الخاتمية والحسن وإذا قلت : اجعل هذا الخاتم حسناً فقد أشرت إلى الخاتمية وطلبت الحسن فقط [2] ويردد الرازي ما سبق فيقول : " إنما قال في هذه السورة ـ البقرة ـ " بلدا آمنا " على التنكير، وقال في سورة إبراهيم " هذا البلد آمنا " على التعريف لوجهين : الأول : أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً فكأنه قال : اجعل هذا الوادي بلدا آمنا لأنه تعالى حكى عنه أنه قال "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم " [3] ، فقال هنا : اجعل هذا الوادي بلداً آمنا .

الثاني : إن تكون الدعوتان وقعتا بعدما صار المكان بلداً فقوله " اجعل هذا بلدا آمنا " تقديره : اجعل هذا البلد بلداً آمنا ، كقولك كان اليوم يوما حاراً ، وهذه إنما تذكر للمبالغة في وصفه بالحرارة لأن التنكير يدل على المبالغة " [4].

وعلى هذا التوجيه فإن الدعاء في سورة البقرة متقدم في النزول على الدعاء في سورة إبراهيم . لأنه في سورة البقرة طلب سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ مطلبين : أن يجعل هذا

---

(1) راجع حاشية الجمل ١ / ١٠٥ والكشاف ٢ / ٣٧٩ والالوسي ٨ / ٦٧٨ .

(2) راجع حاشية زاده ـ ١ / ٤٢٥ .

(3) سورة إبراهيم ٣٧ .

(4) الرازي ٤ / ٥٠ .

المكان بلداً إذ لم تكن تحققت فيه هذه الصفة بعد ، وأن يكون هذا البلد آمنا ، أما في سورة إبراهيم فقد عرَّف " البلد " لأنه كان أجيب في دعائه الأول وأصبح بلداً فهو يطلب لهذا البلد صفة الأمن ، تكراراً للدعاء وإلحاحاً فيه .

ولكن الذي ذُكر في ترتيب النزول عكس ذلك . فقد أشار السيوطي [1] أن سورة البقرة مدنية فهي متأخرة في النزول ، وسورة إبراهيم مكيَّة فهي متقدمة في النزول ، ومعنى هذا : أن الدعاء في سورة إبراهيم متقدم على الدعاء في سورة البقرة ، وعلى هذا فإن هذا التوجيه غير مستقيم بل الحاصل هو العكس ، فلابد أن يكون التوجيه غير التوجيه والتعليل غير التعليل ، ولعل هذا يوقفنا على السر في اضطراب توجيهات المفسرين ، فتراهم عندما يفرقون بين اللفظين يذكرون سر التعريف في التنكير والعكس ، أي : أنهم يجعلون السِّر واحداً ولا يستطيعون الوصول إلى الفرق بينهما ، يقول الزمخشري: " فإن قلت : أيّ فرق بين قوله : " اجعل هذا بلدا آمنا " وبين قوله: " اجعل هذا البلد آمنا " ؟ قلت : قد سأل في الأول ـــ أي في سورة البقرة ـــ أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمناً " [2].

ولو تأملت كلام الزمخشري في الجواب : " وقد سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون " وتقابله بقوله : " وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمناً " لوجدته غير مستقيم لوجهين : الأول : أنه بنى كلامه على أن سورة البقرة متقدمة في النزول على سورة إبراهيم وهو خطأ ، الثاني : وقد نتج عن الأول ففي التعبير بـــ " بلداً " هو يطلب أن يكون من جملة البلاد الآمنة ، وفي التعبير بـــ " البلد " يشير إلى أن البلد مَخوف فاجعله آمناً " ولا أرى أثراً للتنكير والتعريف على كلامه ، ولا أرى أنه وضع أيدينا على فروق الصياغة في سؤاله وجوابه كعادته ، بل إنه في سورة

---

(1) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ / ٩ ، المكتبة الثقافية ـــ بيروت ١٩٧٣م .

(2) الكشاف ٢ / ٣٧٩ ، وانظر : البيضاوي بهامش زاده ـــ ٣ / ١٣٧ .

البقرة يقدره بقوله : " هذا البلد بلداً آمناً " [1] مما يوحي بعدم الفرق بينهما .

ويكون كلام الزمخشري مستقيماً لو قال : اجعل هذا المكان بلداً ، أما قوله : اجعل هذا البلد بلداً ، تشعر أنه تحصيل حاصل ، فهو بلد فكيف يطلب أن يكون بلداً إلا إذا قلنا إنه يطلب أن يكون هذا البلد آمناً وعلى هذا يتحد الدعاءان ولا يوجد أثر لفروق الصياغة.

ولشده اضطرابهم تساءلوا هل هما دعاءٌ واحد أو دعاءان ؟ فإن كان الدعاءُ واحداً وعُبر عنه بعبارتين مختلفتين فلابد أن يُحمل ما في سورة البقرة على ما في سورة إبراهيم ويجعل المطلوب صفة الأمن فقط ، وإن تعدد الدعاء يجوز أن يكون " اجعل هذا بلدا آمنا " في وقت عدم تحقق البلدية ، ويكون المطلوب البلدية مع صفة الأمن " [2].

وقد أورد الشهاب الخفاجي هذا الإشكال ، وعرض كثيراً من التوجيهات وكلها مبنية على تقدم الدعاء الوارد في سورة البقرة فقال : " المسؤول أولاً في سورة إبراهيم صلوحه للسكنى بأن يأمن فيه في أكثر الأحوال كما هو شأن البلاد ، والمسؤول ثانياً إزالة خوف عرض كما يعترض البلاد أحياناً ، أو يحمل على الاستدامة ، أو بتنزيله منزلة العاري عنه مبالغة ، أو أحدهما في الدنيا والآخر في الآخرة ، أو يقال : الدعاء الثاني صدر قبل استجابة الدعاء الأول وذكر بهذه العبارة " هذا البلد آمناً – إيماءً إلى أن المسؤول الحقيقي هو الأمن والبلدية طارئة " ، والملاحظ أنه يبني كلامه على أن الدعاء في سورة إبراهيم متأخر عن الدعاء في سورة البقرة ، ولذا نراه يعود فيقع في المخالفة وكأنه عزَّ عليه أن يترك رأي جمهور المفسرين فيقول : " والحاصل أنه دعا أولاً : بأن يكون بلداً وتكون آمنة وثانياً : دعا للبلد بالأمن لتحقق بلديتها ويشهد له تنكيرها وتعريفها " [3].

وقد ذكر البقاعي لتنكير " بلداً " سرًا يتصل بالسياق ويتلاءم معه فقال : " ... ولما كان السياق للمنع من المسجد وللسعي في خرابه وكان ذلك شاملاً بعمومه للبادي ولذلك قرر أنه مثابة للناس عامة وأمناً كان الأنسب تنكير البلد فقال " بلدا " يأنس فيه من يحل به " آمناً " إفصاحاً بما أفهمه " وقال في سر التعريف : " ولما كان السياق لإخراج الرسل من محالهم ، وكانَ

---

(1) الكشاف ١ / ٣١٠ .

(2) حاشية زاده – ٣ / ١٣٧ .

(3) حاشية الشهاب الخفاجي ٥ / ٢٧٠ .

ذلك مُفْهِماً لأن المحلّ الذي يقع الإخراج منه بَلَدُ ،يُسْكن فيه ، وأتبعه ـ سبحانه ـ بأن المتعرضين بدّلوا نعمة الله ـ بما أسكن فيه من الأمن بعد جعله بلداً ـ بما أحدثوا فيه من الإخافة لخير أهله ، ومن الإنذار لمن انعم عليهم بكل ما فيه من الخير ، كان الأنسب تعريفه فقال : " اجعل هذا البلد آمناً " أي الذي يريدون إخراج الرسول منه " [1] .

إلى هنا وكلام البقاعي يتلاءم مع السياق بعيداً عن ترتيب النزول لأن هذه الجملة " بلداً آمناً " جاءت في سباق المنع من المسجد والسعي في خرابه فكان الدعاء أن يجعل هذا البلد مثابة للناس وأمناً فكان المناسب التنكير ، أما التعريف فلأن السياق في إخراج الرسل من محالهم فكان المناسب التعريف " هذا البلد آمناً " .

ثم يعود إلى ما قاله المفسرون فيقول : " وكأن هذا الدعاء صدر منه بعد أن سكن الناس مكة وصارت مدينة ، والذي في البقرة كان حيث وضع ابنه بها مع أمه وهي خالية عن ساكن فدعا أن يجعلها الله بلداً ، وأن يجعلها بعد ذلك موصوفة بالأمن وهو سكون النفس إلى زوال الضرر"[2].

ومع جهد العلماء الكبير ، وسعيهم الدءوب في محاولة الوصول لشيء من أسرار التعبير القرآني ، ومع قوة شكيمتهم ، وسعة علمهم ، وصفاء فطرتهم ، ووقادة قريحتهم ، فإن ناقتهم بركت وأعياها الكلال وكما دخلوا خرجوا إلا باليسير ، وبقي التعبير القرآني ، يحتفظ بكثير من أسراره ، ويستعصي على البوح إلا بالقليل ، وهذا هو الإعجاز القرآني !!!

والذي خطر لي بعد معاناة فهم كلام المفسرين والخوف من تخطئة جمهورهم ، وعدم الوقوف على ما أتكئ عليه لتصحيح كلامهم ، أن دعاء سورة إبراهيم المتقدم في النزول جاء معرفاً " رب اجعل هذا البلد آمناً " من قبيل إطلاق لفظ البلد على المكان باعتبار ما سيؤول إليه ، وهذا لون من المجاز كثير الوقوع في أساليب العرب لأن الداعي مفعم بالرجاء والأمل في إجابة دعوته ، لاسيما سيدنا إبراهيم الذي عوّده ربه إجابة دعائه ، وتحقيق رجائه ولذا قال بعد ذلك " إن ربي

---

(1) انظر نظر الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١ / ٢٤١ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط / أولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

(2) المرجع السابق ٤ / ١٩٠ .

لسميع الدعاء " أي : مجيبه فرحاً أن يكون هذا المكان بلداً ليس كأي بلد بل بلداً خاصاً على أكمل ما تكون البلاد ، وأن يكون آمناً غاية ما يكون الأمن فقد ترك ابنه وزوجته في هذا المكان الذي لا توجد فيه أدنى عناصر الحياة ، والأب الشفوق على طفله وزوجته لا يرضى إلا أن يطلب من ربه أقصى رجاءاته ، وغاية أمانيه فطلب أقصى البلدية وأقصى الأمن معا ، ويكون في لفظ " البلد " مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيئول إليه ، لأن المكان لم يكن بلداً بعد فهو مثل قوله تعالى : " إني أراني أعصر خمرا " [1] ، وقوله تعالى : " فبشرناه بغلام حليم " [2] .

أما في سورة البقرة المتأخرة في النزول فقد هدأت نفسه وتحققت دعوته واطمأن لاستقرار ابنه وزوجته فطلب من ربه أن يديم هذا الأمن على هذه البلد وأن يجعله عاماً للجميع لأسرته ولمن يؤمُّه فقال : " بلداً آمناً " أي : اجعله آمناً للمقيمين فيه ، ولحجاج بيتك الذي يقصدونه ، إلحاحاً في الدعاء ، وتكراراً للسؤال ، حفظاً واستمراراً لما تمتعوا من إجابة الدعاء الأول ، ويساعد على هذا الفهم الذي يراجع سياق المؤطنين في سورة إبراهيم والبقرة ـ والله أعلم ـ .

والمقصود بقوله : " بلداً آمناً " أي : آمناً أهله على الإسناد المجازي كقوله " واسأل القرية " أو على النسب : أي صاحب أمن لمن فيه ، وهذا ما عليه جمهور المفسرين [3] ، إلا أن صاحب المنار لا يرى داعياً لحمل الأسلوب على المجاز ، بل يحمله على الحقيقة فيقول : " وقد فسَّر الجلال " آمناً " بقوله : ذا أمن ، مع أن المعنى ظاهر ، وهو أن يكون محفوظاً من الأعداء الذين يقصدونه بالسوء ، وهو غير معنى كونه ذا أمن ، أي : أن من يكون فيه ، يكون آمناً ممن يسطو عليه فيظلمه أو ينتقم منه " [4].

ولأهمية صفة الأمن قُدِّم على غيره من الدعوات ، فالابتداء بطلب نعمة الأمن في الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به ،

---

(1) يوسف ٣٦ .

(2) الصافات ١٠١ .

(3) راجع الجمل ١ / ١٠٥ ، والشهاب ٢ / ٣٨٧ ، والرازي ٢ / ٤١٠ ، والألوسي ٢ / ١٤٤ .

(4) تفسير المنار للشيخ محمد رضا ٤٦٣/١ ، وتفسير السيوطي بهامش حاشية الجمل ١ / ١٠٥ .

وقدموه على الصحة ، لأن المريض قد يَصحُّ بَعْدُ ، أما الخائف فإن الخوف قد يؤدي به إلى الموت ، فالضرر الحاصل بالخوف ، أشد من الضرر الحاصل من ألم البدن [١] .

وقد استجاب الله دعاء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في ذلك ، ومن تعدّى على البيت لم يطل زمن تعديه بحيث يقال : إنه قد مرَّ زمن لم يكن البيت فيه آمنا ، بل لم ينجح أحد تعدَّى عليه لذاته ، وإنما كان التعدي القصير هو التعدي العارض على بعض من اعتصم فيه [٢] ، ويضيفون : " وقد اختُصَّت مكة بمزيد الأمن ألا ترى أن الخائف وصاحب الجريمة ، كان إذا التجأ إلى مكة أمن ، وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضا ، ومن ذلك أمن الوحوش ، فإنهن لا ينفِّرْن ، إذْ كنَّ بمكة ، ويستوحش على الناس خارج مكة [٣] .

أما الظاهرة الثانية : ففي سورة البقرة بعد الدعاء بالأمن للبلد دعا لأهلها بالرزق " رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات " وفي سورة إبراهيم ، بعد الدعاء لمكة بالأمن طلب من ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام : " رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ " وتلمح في هذا حرص سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ على تحقق خيري الدنيا والدين مع تقديم الدين على الدنيا ، لأن سورة إبراهيم متقدمة في النزول ، فهو يدعو لنفسه ولبنيه أولا بالثبات على اجتناب عبادة الأصنام ، وثانيا بكثرة الثمرات ، وهذه النعمة لا تحقق غايتها ولا يُحْسن التصرف فيها إلا قلوب طهرت من عبادة الأصنام وتجنبت السجود لجمادات حامدة ، ومخلوقات عاجزة أما مع السجود لهذه الأصنام ، فإن الرزق يكون معينا على المعصية مساعداً على الانحراف العقلي والجسدي الانحراف العقلي : بالفكر الزائغ ، والعقل المتجرد من الحكمة والاتزان ، يلقى خواطره دون تمحيص ، ويعرض فكرة دون بصر ونظر ، والانحراف الجسدي بالرذيلة والدعوة إليها وتخيُّل مساوئها حسنا ، وزيفها صوابا ورقيا ، وها هو الواقع يؤكد هذا ، إذ تجد البلاد التي زاد دخلها ، وترفَّه أهلها ، مع عدم وجود عقيدة ثابتة ، ودين راسخ ، تجد همهم تحطيم الدول الفقيرة ، والاستيلاء على خيراتها ، والعبث في مقدراتها ، استناداً على حجج باطلة ، ودعاوي زائفة ، وأكاذيب مموَّهة ، فبينما ينادون بالديمقراطية وحقوق الإنسان ، تجدهم أبعد شيء عنها وأحرص

---

(١) راجع الرازي ٩ / ٣٥٨ .

(٢) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ١ / ٤٦٤ .

(٣) حاشية الشيخ زاده ـ ٣ / ١٣٧ .

على إذاقة الإنسان صنوف الذل ، وألوان القهر والاستعباد ، وينطبق هذا أيضاً على فئة من الناس تولت مقاليد الأمور ، واستبدت بصنع القرار، فلم تراعِ في شعوبها إلاّ ولا ذمة ، ولذا نجد التذييل البليغ بعد طلب الثمرات " لعلهم يشكرون " فسيدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ يطلب التوسعة على أهل هذا البَلد ، لهذا المقصد السامي ، والهدف النبيل ، وهو شكر النعمة ، الذي يتحقق معه تطبيق منهج الله في استعمال النعمة فيما خُلقت له .

والأمر في قوله " واجنبني وبني أن نعبد الأصنام " خرج إلى معنى طلب الثبات والدوام على ذلك كما قال : " واجعلنا مسلمين لك " أما في حق إبراهيم ــ عليه السلام ــ فظاهر ، لأن الأنبياء معصومون من عبادة الأصنام ، وفي ذلك هضم للنفس ، وإظهار للحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى في كل المطالب ، وأما في حق بنيه ، فقد ذكروا : أن المقصود بنيه من صلبه " إسماعيل وإسحاق " ولا يصح هنا أن ينطوي تحت قوله " بني " أحفاده ، لأن كفار قريش كانوا من أحفاده ، ثم إنهم كانوا يعبدون الأصنام ، وقوله : " لا ينال عهدي الظالمين " يدل على أن فيهم من هو كذلك [1] .

ويجوز أن يدخل أولاد أولاده في قوله " وبنيّ " الذين كانوا موجودين في حال الدعاء ، ولاشك أن دعوته مجابة فيهم ، ويجوز أن يكون هذا الدعاء مختصاً بالمؤمنين من أولاده حيث ذُيِّلت الآية بقوله : " فمن تبعني فإنه مني " وهذا يدل على أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ولا من أولاده ، أو أنه عليه ــ الصلاة والسلام ــ وإن دعا في حق أبنائه الصلبية وحفدته ، إلا أنه تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض [2] .

ولعل دخول الحفدة في الدعاء أكثر فائدة ، وأنسب لوظيفة الرسول وأبعد من أن يوصف أبو الأنبياء بأن أولاده كان لهم عنده مزيد اختصاص عن بقية الأمة ، لأنه ــ عليه السلام ــ لا يفرق في الدعاء بين أبنائه من صلبه وغيرهم ، لاسيما وأن هذا الدعاء طلب اجتناب عبادة الأصنام ، وهو سبب إرساله والغاية منها ، وفي هذا المقام يتساوى في نظر الرسول الابن والحفيد وغيرهما ، فالأمة كلها أبناؤه ، وقوله : " فمن تبعني فإنه مني " يؤكد هذا ويقويه ، ثم أن يجاب أو لا يجاب فهذه مسألة قدرية .

---

(١) راجع : الكشاف ٣ / ٣٧٩ ، وزاده ٣ / ١٣٧ .

(٢) راجع : تفسير الرازي ٩ / ٣٥٤ .

وقوله : " رب إنهن أضللن كثيرا من الناس " يوحي بتحسُّر سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ على ما آل إليه أمر الأصنام ، وافتتان الناس بها وعبادتها ، ولذلك أعيد النداء ، وهو تعليل لدعائه السابق : " واجنبني وبني أن نعبد الأصنام " وإسناد الإضلال إليها مع أنها جمادات لا تعقل لأنها كانت سبباً في إضلال كثير من الناس فكأنها أضلتهم ، فنسبة الإضلال إليها مجاز عقلي علاقته السببية ، أي : ضلُّوا بسببها ، وقوله : " فمن تبعني فإنه مني" شامل لذريته وغيرهم ، فمن تبعني في توحيد الله وعبادته ، فإنه متصل بي اتصال البعض بكله [1] .

وقوله : " ومن عصاني " شرط محله الرفعُ على الابتداء والجواب" فإنك غفور رحيم " والعائد محذوف أي : له ، ولم يقل : ومن عصاك لأن معصية الرسول معصية لله تعالى ، وأيضاً فإن التعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنه ـ عليه السلام ـ مستمر على الدعوة ، وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه ، لا لأنه لم يبلغه الدعوة ، وقدروا محذوفاً في الآية أي : من عصاني ثم تاب فإنك غفور رحيم ، أومن عصاني فيما دون الشرك : أو من عصاني بإقامته على الكفر " فإنك غفور رحيم " يعني : قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإيمان ، وتهديه إلى الصواب [2].

وتلمح في الأسلوب الأدب العالي في مقام الدعاء إذ يختار من صفاته تعالى صفتي "الغفور الرحيم " وفي هذا إتكاء على جانب المغفرة والرحمة وتفويض الأمر إليه ـ تعالى ـ في جانب العصاة ، وطمع في الغفران والرحمة لهم ، وهذا من حلمه ـ عليه السلام ـ وخشيته على أمته من عذاب الاستئصال .

كما تلمح الطباق المعنوي [3] بين الاتباع والعصيان ، لأن الاتباع طاعه

---

(1) راجع : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٣ / ٢٣٩ .

(2) راجع تفسير أبي السعود ٣ / ٢٦٨ ، وحاشية الجمل ٢ / ٥٢٧ ، والألوسي ٨ / ٦٨٣ .

(3) الطباق نوعان ظاهر ، وهو الجمع بين معنيين متضادين في الجملة كقوله تعالى : " وتحسبهم أيقاظا وهم رقود " الكهف ١٨ ، وهذا هو الأعم الأغلب وأكثر الأمثلة له ، وطباق خفي معنوي وهو أن تكون الضدية بين اللفظين غير ظاهرة بل تحتاج إلى تأمل ودقة نظر ـ راجع الإيضاح للخطيب القزويني ٣ / ٤٨٠ تعليق د / خفاجي ط / ثانية ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

وهو مقابل للعصيان [1] .

وقوله : " ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " دعاء ورجاء من سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يُيسِّر المنافع على أولاده ، ليتفرغوا لعبادة الله ـ تعالى ـ وأداء الواجبات ، فهم وإن كانوا بوادٍ غير ذي زرع إلا أنهم يتشرفون بجوار بيت الله الحرام ، وهذا أدعى أن تحفهم بركته فينعموا برغد العيش والأمن من الخوف ، فيتفرغوا للعبادة ولا يشغلهم شاغل ، وفي قوله : " بواد غير ذي زرع " تجد المبالغة في وصف هذا الوادي بالجفاف والقحل وأنه غير صالح للزرع ألبته ، لأن وسائل الزرع غير متحققة فيه ، فكان هذا التعبير ، لأن " غير ذي زرع "صفة لـ " واد " أي : بوادٍ لا يصلح للنبت ، فإنه حجارة ، فإن كلمة " ذو " تدل على صاحب ما أضيف إليه ، وتمكنه منه ، فإذا قيل : ذو مال ، فالمال ثابت له ، وإذا أريد ضد ذلك قيل : غير ذي كذا كقوله : " قرآنا عربيا غير ذي عوج " [2] أي : لا يعتريه شيء من العوج ، ولأجل هذا الاستعمال لم يقل : بوادٍ لا يُزْرع أو لا زرع فيه [3] .

وفي قوله " عند بيتك المحرم " ترى تعانق علاقات المجاز المرسل المتضادة ، فلم يكن ثمت بيت محرم وقت دعائه ـ عليه السلام ـ وإنما كان تلاً من رمل ، وأما البيت فقد رفع إلى السماء من حين الطوفان وعليه فالتعبير من قبيل المجاز وعلاقة اعتبار ما كان عليه ، ويحتمل أن يكون المعنى: عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان ، على اعتبار أن الله ـ تعالى ـ أوحى إليه وأعلمه أنّ له هنا بيتاً قد كان في سالف الزمان ، وأنه سيعمره ، وعلى هذا فالتعبير من قبيل المجاز المرسل وعلاقته اعتبار ما سيؤول إليه" [4].

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٤٤٥ ، والألوسي ٨ / ٦٨٣ .

(٢) الزمر ٢٨ .

(٣) راجع : الكشاف ٢ / ٣٨٠ ، والشهاب ٥ / ٢٧١ ، والتحرير والتنوير ١٣ / ٢٤١ .

(٤) تفسير البيضاوي بهامش حاشية زادة ـ ٣ / ١٣٨ .

وفي قوله : " فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " طلب من الله تعالى أن تذهب إليهم الناس ليعمر بهم المكان ويأنسوا فيه ، كما طلب أن يرزقهم من الثمرات ليكون ذلك عوناً على الطاعة والعبادة ، " وهو دعاء جامع لمطالب الدين والدنيا ، لأن الناس يذهبون إلى البيت الحرام للتقرب إلى الله تعالى ، وليتبادلوا المنافع عن طريق التجارة وغيرها"[1] .

وفي هذا الدعاء من مراعاة حسن الأدب ، والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة ، واستنزال الرحمة ، واستجلاب الرأفة ما لا يخفى فإنه ـ عليه السلام ـ بذكْر كون الوادي غير ذي زرع بيَّن كمال افتقارهم إلى المسئول ، وبذكْر كون إسكانهم عند البيت المحرم أشار إلى أن جوار الكريم ، يستوجب إفاضة النعيم ، وبعَرْض كون ذلك الإسكان مع كمال إعواز مرافق المعاش لمحض إقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مَهَّد جميع مبادئ إجابة السؤال ، ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول [2] .

والأسلوب غاية في البلاغة والإعجاز ، إذ تجد إسناد " تهوي" إلى " أفئدة " لا إلى الناس ، للإشارة إلى أن سعي الناس إليهم يكون على شوق ومحبة حتى لكأن المسرع إلى هذا الجوار الطيب هو القلب والروح لا الجسد وحده ، فيكون المعنى : فاجعل أناساً يقصدونهم بحبات قلوبهم [3] .

ثم تجد هذا الاحتراز والخوف على الذرية من كثرة القاصدين إليهم بما يحيل حياتهم إلى ضجيج وصخب ، ويمنعهم الهدوء والأمن الذي طلبه سابقاً فكان هذا التعبير " أفئدة من الناس "

---

(١) تفسير الرازي ٩ / ٣٦٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٢٧٠ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور١٣ / ٢٤٢، والكشاف ٢ / ٣٨٠ ، وحاشية الشهاب ٥ / ٢٧٣ . وحاشية زاده ـ ٣ / ١٣٩ .

هكذا بتنكير " أفئدة " وهو يفيد التقليل ، والإتيان بـ " من " التي يصح أن تكون تبعيضية فتؤكد معنى التقليل ، وقد روى عن مجاهد أنه قال : " لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم " وقيل : لو لم يقل " من " لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند " ويصح أن تكون " من " بيانية كقولك : القلب مني سقيم ، تريد قلبي ، وحينئذٍ تحمل معنى آخر هو : تحديد نوعية هذه الأفئدة بأنها أفئدة ناس لا غير الناس ، فهم الذين يكون بهم الأنس ، وهم الذين بهم يعمر المكان ويكثر خيره [1] .

ومع ما في هذا الأسلوب من المجاز والتجسيد والتصوير بتشبيه القلوب بإنسان يسرع في مشيه رغبة في لقاء من يحب ، أو بإسناد الهوى إلى القلوب على المجاز العقلي ، ترى هذه الحركة الماثلة أمام العيون وكأنك ترى القلوب تطير زرافات ووجدانا ، إلى هذه الأم الرءوم ووليدها وهما في حال من يراهما يَرْثى لهما ، فهما في مكان تحوطه الوحشة من كل جانب وليس فيه ما يوحي بشيء من الأمن والطمأنينة ، إذ ببشائر الخير تهوي هوياً ممزوجاً بالتئدة ، وتسرع إسراعاً ممزوجاً بالتريث ، وليست تؤدة خوف ولا تريّث شك في هناءة المقام ، ولكنها تؤدة وتريثاً حتى لا يزعج الساكن ، ولا يتبرّم المقيم ، وكما يقول صاحب الظلال : " وفي التعبير رقّة ورفرفة ، تصوّر القلوب رفّافة مجنّحة ، وهي تهوي إلى ذلك البيت ، وأهله ، في ذلك الوادي الجديب " [2] .

يقول الشهاب الخفاجي : " في هذه الآية بلاغة عجيبة حيث جعل القلوب نفسها تهوى ، وفي معناه قلت :

كل امرئ ببذل إنعامه ... يمشي إليه القلب قبل القدم " [3]

وهو من حيث المعنى لا بأس به ، ومن حيث الأسلوب ، أين الثرى من الثريا ؟ ! !

---

(1) راجع الكشاف ٢ / ٣٨٠ ، وابن كثير ٢ / ٥٤٢ .

(2) الظلال ٤ / ٢١١٠ .

(3) حاشية الشهاب الخفاجي ٥ / ٢٧٣ .

والأمر في قوله " فاجعل ... وارزقهم " الغرض منه التضرع والدعاء ، ورجاء شكرهم داخل في الدعاء لأنه جُعل تكملة له ، تعرضا للإجابة وزيادة في الدعاء لهم بأن يكونوا من الشاكرين [1] .

وقد أجاب الله تعالى دعوة خليلة إبراهيم فجعله حرماً آمنا تجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنه ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً ، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله ـ بواد غير ذي زرع ـ وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجيب [2] .

ثم يأتي هذا الثناء على الله تعالى في قوله : " ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء " أي : أنت أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منّا ، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها ، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب ، وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك ، وتخشعا لعظمتك ، وتذللا لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالا لنيل أياديك ... " [3] .

وفي قوله : " إنك تعلم ما نخفي وما نعلن " ترى تقديم " ما نخفي " على " ما نعلن " للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه ، وظاهر النظم القرآني عموم كل ما يظهر من غير تقييد بشيء معين " [4] .

---

(1) راجع الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨١ .

(2) السابق ٢ / ٣٨٠ .

(3) السابق ٢ / ٣٨١ .

(4) فتح القدير للشوكاني ٣ / ١١٣ .

وانظر إلى هذا الأسلوب التأكيدي ، فمع أن جملة " إنك تعلم ما نخفي وما نعلن " معناها : أن الله يعلم السر والخفاء ، وهذا يفيد ضمناً أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولكن جاء قوله " وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء " مع ما فيه من تأكيد للجملة الأولى ، يفيد تأسيس معنى ثانٍ بطريق النص لا التضمين ، زيادة في تقرير هذا المعنى في ذهن السامع ، وهو : أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وليس فقط أنه تعالى يعلم ما نخفي ، وما نعلن فأفادت الجملة الثانية التأكيد للجملة الأولى ، وأضافت معنى جديداً ليس في الأولى ، وهذا ما يسمى " التعميم بعد التخصيص " [1] هذا إن كانت الجملة الثانية من كلام سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإن كانت من كلام الله تعالى ، فهو تصديق لإبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وليس المقصود تحديد عدم خفاء شيء عليه تعالى : " في السموات والأرض" فقط ، وإنما ذكر السموات والأرض لأنهما المشاهدتان للعباد ، وفيهما من دقائق الصنع والخلق ما لا يخفى على المتأمل ، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم ، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه خافيه [2] .

ثم هذا الثناء على الله تعالى بحمده وإظهار منّته في قوله : " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء " .

والواضح من السياق أن هذا الدعاء قاله إبراهيم في وقت آخر ، لا عقيب ما تقدم من الدعاء ، لأن الظاهر أنه ـ عليه السلام ـ دعا بذلك الدعاء المتقدم أول ما قدم بهاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه ، ووضعها عند البيت وإسحاق لم يولد في ذلك الوقت ، بل إن ما حُكِي

---

(1) السابق ٣ / ١١٣ .

(2) السابق ٣ / ١١٣ بتصرف .

عن سيدنا إبراهيم عليه السلام من الأدعية والأذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي ، ولا على وجه المعية ، بل صدر عنه في أزمنة متفرقة ، حُكي مرتباً للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملة ، وإرشاد الناس إليها والتضرع إلى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنيوية [1] .

وقد ذكر الرازي وجهاً للمناسبة بين قوله : " ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ... " وبين قوله : " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق .... " فقال : " كأنه كان في قلبه أن يطلب من الله تعالى إعانتهما وإعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب بل قال : " ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ... " ثم قال : " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق .... " وذلك يدل ظاهراً على أنهما يبقيان بعد موته ، وأنه مشغول القلب بسببهما ، فكان هذا الدعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض ... ولما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الإيضاح والتصريح قال : " إن ربي لسميع الدعاء " أي : هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أم لم أصرح " [2] .

ويأتي القيد بالجار والمجرور " على الكبر " لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة عقب اليأس من أَجَلّ النعم وأحلاها في النفس الظافرة ، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم " [3] .

وأيضاً لأن الولادة حال الكبر فيها دلالة واضحة على قدرته تعالى وسيدنا إبراهيم في معرض الثناء على ربه ، وفي هذا القيد ما فيه من التذكير بقدرته تعالى وطلاقتها ، فإبرازه في هذا المقام له كبير الأثر في النفوس ، كما أن هذه اللفظة تدل على تمكن الكبر منه ، ومَنْ هذه

---

(1) راجع : حاشية زاده ـ ٣ / ١٤٠ ، ونظم الدرر في تناسب السور للبقاعي ٤ / ١٩٢ ، وتفسير أبي السعود ٣ / ٢٧٣ .

(2) تفسير الرازي ٩ / ٣٦٢ بتصرف .

(3) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨١ .

حالة غالباً ما يكون يائساً من الولد ، فكانت هذه اللفظة مصورة لحال سيدنا إبراهيم أدق تصوير ، واصفة مشاعره أدق وصف ، ومع حاله هذا يرزق بإسماعيل وإسحاق ، فكان الحمد والثناء منه لخالقه ، ولذا يقولون : " يحتمل أن تكون " على " للاستعلاء المجازي أي : وهب لي وأنا متمكن على الكبر ، وأن تكون بمعنى " مع " (١) .

ثم تأتي جملة " إن ربي لسميع الدعاء " تذييلاً لهذا الثناء مؤكدة بـ " إن " واللام وإسمية الجملة ، ليس ردًا لإنكار وإنما " لما كان إتيان الولد له في سن لا يولد فيه لمثله ، وجميع ما دعا به من الخوارق فوجوده لا يكاد يصدق أشار بذلك بتأكيد قوله : " إن ربي لسميع الدعاء " أي : من شأنه إجابة الدعاء على الوجه الأبلغ تعريضاً بالأنداد " (٢) .

والتأكيد ليس شرطاً أن يكون ردّاً لإنكار منكر ، وإنما قد يكون لأهمية القضية المعروضة ، كما هنا ، وكما في قوله تعالى : " إنك لعلى خلق عظيم " (٣) ، وقوله تعالى : " إنك أنت الأعلى " (٤) ، فسيدنا محمد لا ينكر أنه على خلق عظيم ولا يتردد في ذلك ، وإنما كان التأكيد لشرف الموضوع وأهميته ، وكذلك سيدنا موسى لا ينكر أنه الأعلى لأنه رسول مرسل من عند ربه إلى قوم كفرة لا يؤمنون بالله فهو لا يشك في علوه وعلو ما جاء به وسفالة مخالفيه ، وإنما جاء التأكيد لتطمينه وتهدئة روعه .

وهذه الجملة من تمام حمده وثنائه على خالقه حيث كان قد دعا ربه وسأله الولد فقال : "رب هب لي من الصالحين " (٥) ، فشكراً لله ما أكرمه به من إجابته .

وفيها استعمال " سميع " وهي من أبنية المبالغة ، وإضافة فعيل إلى فاعله على الإسناد المجازي (٦)

والملاحظ في هذه الجملة " إن ربي لسميع الدعاء " أنها نفس التذييل الذي ذيّل بها سيدنا زكريا دعاءه في قوله : " هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء " (٧) .

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨١ .
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٤ / ١٩٢ .
(٣) القلم ٤ .
(٤) طه ٦٨ .
(٥) الصافات ١٠٠ .
(٦) الكشاف ٤ / ٣٨١ ، والجمل ٢ / ٥٣٠ .
(٧) آل عمران ٣٨ .

وقد اتفقا في المطلب فسيدنا إبراهيم يطلب ذرية طيبة وعقبا صالحاً ، وكذلك سيدنا زكريا يطلب هذا المطلب أيضاً ، كما اتفقا في الإتيان بلفظ " سميع " وهو من أبنية المبالغة ، وإضافة فعيل إلى فاعله على الإسناد المجازي ، ومن فروق الصياغة بين الأسلوبين ، أن دعاء سيدنا زكريا جاء بالضمير " إنك سميع الدعاء " لأنه تقدَّم لفظ الرب مرتين في الآية كما جاء الخبر خالياً من التأكيد " سميع الدعاء " ودعاء سيدنا إبراهيم جاء بلفظ الرب مضافاً إلى ضميره " ربي " وأكد الخبر باللام " لسميع الدعاء " .

وبعد أن طلب سيدنا إبراهيم من ربه أن يوفقه وبعض ذريته لإقامة الصلاة والمحافظة عليها ، وهذا همه الأكبر حيث أسكن ذريته في هذا الوادي الخلاء البلقع لأجل أن يوفقوا لإقامة الصلاة في قوله: " ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ... " ها هو يعاود هذا الطلب تأكيداً ورغبة في استدامته ، وإلحاحاً في الدعاء وإشارة إلى أن هذا النوع من العبادة دال على غاية الخضوع مع ما فيه من الصعوبة على النفس إلا بمعونة الله تعالى في قوله : " رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء " ومن في قوله : " ومن ذريتي " للتبعيض ، لأنه علم بإعلام الله له أنه يكون في ذريته كفار وذلك في قوله : " لا ينال عهدي الظالمين ... [1] " [2].

وقوله : " ربنا وتقبل دعاء " أي : عبادتي ، وقد فسَّره الزمخشري وغيره بذلك تأكيداً لأهمية الدعاء وعلو منزلته ، واستعمال الدعاء بمعنى العبادة في القرآن كثير ، ومنه قوله تعالى : " قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ " [3] ، " وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ " [4] .

يقول الزمخشري في الآية الأولى: "والدعاء العبادة ... يعني: أنكم لا تستأهلون شيئاً من العبء لولا عبادتكم " [5]، ويقول في الآية الثانية : " ... المراد بالدعاء العبادة لأنها منها ومن

---

(١) البقرة ١٢٤ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨١ .

(٣) الفرقان ٧٧ .

(٤) مريم ٤٨ .

(٥) الكشاف للزمخشري ٣ / ١٠٣ .

وسائطها، ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " الدعاء هو العبادة " ويدل عليه قوله تعالى : " فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ " [1].

ويقول في قوله تعالى : " وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ "[2] " ادعوني ، اعبدوني والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ويدل عليه قوله : " إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي " [3] .

ولعل مجيء الدعاء بمعنى العبادة يُظْهر مدى التلازم وقوة الارتباط بينهما فالعبادة دعاء وثناء على المعبود ، وطَلب النجح في الأمور ، وإزاله المكاره والشرور ، والذي يدعو مستغيثْ بمن يدعوه طالب نصرته ، والمعبود مدعو على الدوام ، فأي فائدة في عبادة لا دعاء ولا تذلل فيها وأي فائدة للدعاء إذا لم يكن المدعو معبوداً بحق وله القدرة على الإجابة وتحقيق السُّؤل ، ولأجل هذا الارتباط كان استعمال الدعاء بمعنى العبادة ، وكانت العبادة دعاءً ...

وفي قوله : " ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب " يطلب سيدنا إبراهيم المغفرة لنفسه لا لأنه ـ عليه السلام ـ ارتكب ذنباً يوجب الاستغفار ، ولكن لمعرفته القوية بالله ، وليشدَّه تعظيمه وتوقيره له تعالى هضم نفسه واحتقارها ، واتهامها بالتقصير وطلب من ربه المغفرة كما سبق في قوله " وتب علينا " .

ثم يستغفر لوالديه وهذا الاستغفار حكى عن سيدنا إبراهيم في مواطن عدة وبدايته كان وعداً لأبيه بالاستغفار عندما دعاه إلى التوحيد وأمره باتباعه وخوفه من اتباع الشيطان في قوله ـ تعالى ـ " إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ

---

(1) السابق ٢ / ٥١٢ .

(2) غافر ٦٠ .

(3) الكشاف للزمخشري ٣ / ٤٣٣ .

وَلِيّاً " [1] فكان رد والده (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَم تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً) [2] ورد سيدنا إبراهيم على هذا الجفاء والغلظة بالحلم وراعى حرمة الأبوة ووعده بالاستغفار له في قوله : " قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً " [3] .

وقد وفى بوعده واستغفر لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق وظل يستغفر له حتى نهى عن ذلك في قوله : " وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ " [4] .

واستغفار إبراهيم لأبيه حكاه القرآن بصيغة الاستقبال في مريم والتوبة كما سبق ، وفي الممتحنة في قوله ـ تعالى ـ : " لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء " [5] ، وحكاه بصيغة القطع كما هنا : " ربنا اغفر لي ولوالدي " ، وكما في قوله ـ تعالى ـ في سورة الشعراء : " واغفر لأبي إنه كان من الضالين " ، وقد وجه العلماء على أن المعنى : " واغفر لأبي " بالهداية والتوفيق للإيمان فإنه يجوز الاستغفار للأحياء من المشركين بتوفيقهم للإيمان ، أما من مات على الشرك فلا يجوز الاستغفار له ، وسيدنا إبراهيم ظن أن أباه قد آمن باطناً وإن كان على دين نمرود ظاهراً خوفاً منه ، فلما تبين له أن الأمر على خلاف ذلك تبرأ منه ، ولذلك قال في دعائه : " إنه كان من الضالين " فلولا اعتقاده فيه أنه في الحال ليس ضالاً لما قال ذلك ، يقول الزمخشري : (فإن قلت : كيف خفي على إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده ؟ قلت : يجوز أن يظن أنه مادام يرجى له الإيمان جاز الاستغفار له ، على أن امتناع جواز الاستغفار

---

(1) مريم ٤٢ ـ ٤٥ .
(2) مريم ٤٦ .
(3) مريم ٤٧ .
(4) التوبة ١١٤ .
(5) الممتحنة ٤

للكافر إنما عُلم بالوحي لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر)[1] وعلى هذا فإن استغفار إبراهيم لأبيه يخرج على وجهين الأول : أن الاستغفار للحي جائز وإن كان مشركاً فيكون من قبيل الدعاء له بالتوفيق والهداية • الثاني : أن سيدنا إبراهيم ظن أن أباه قد آمن باطناً وإن كان على دين نمرود ظاهراً خوفاً منه ، فلما تبين له أن الأمر خلاف ذلك تبرأ منه ورجع عن دعائه له ودعاء سيدنا إبراهيم لوالده لم يجب ، وهذا هو العدل الإلهي الذي يطبق على والد أبي الأنبياء وعلى غيره من البشر •

أما طلبه المغفرة للمؤمنين فهذا همه ودأبه ورسالته ، وقد كُرر هذا الدعاء بأساليب مختلفة ، وسبق أن لفظ " بنيَّ "و" ذريتي" كُرر سبع مرات بالاسم الظاهر والضمير والمقصود ببنيه وذريته هم المؤمنون، وهنا نصَّ عليهم نصاً تأكيداً وإلحاحاً في الطلب والدعاء •

وفيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة لأن الله لا يرد دعاء خليله إبراهيم عليه السلام[2] •

ثم هو عليه السلام يقيد هذه المغفرة بـــ " يوم الحساب " مع أنها تغفر في الدنيا أيضاً ، وذلك لأن المؤمن وإن كان محتاجاً إلى المغفرة في الدنيا والآخرة فإنه في الآخرة أحوج ما يكون إليها ، ثم إن المغفرة أكثر ما يظهر أثرها في هذا اليوم ، ولأن في ذلك تهويلاً ليوم الحساب وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه [3] •

وقوله " يوم يقوم الحساب " إما أن يكون من قبيل المجاز العقلي علاقته المكانية والتقدير : يوم يقوم الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوماً عند السامع ، وإما أن يكون من قبيل الاستعارة ، ولذا يقولون : " يوم يقوم الحساب " أي يثبت مستعار من القيام على الرِّجْل كقولهم قامت " الحرب على ساق " وعلى هذا يصح أن تكون تبعية بأن شبه ثبات الحساب بقيام القائم على الرجل ، فاستعير القيام لذلك الثبات ثم أطلق يقوم وأريد يثبت ، ويصح أن تكون

---

(1) الكشاف للزمخشري ٢ / ٢١٧، وراجع : البحر المحيط لأبي حيان ٥ / ٥١٤ ، وتفسير الرازي ٩ / ٣٦٣ ، وحاشية الشيخ زادة ـــ ٣ / ٤٧٤ •

(2) الجمل ٢ / ٥٣١ •

(3) راجع : تفسير أبي السعود ٣ / ٢٧٣ •

مكنية ، بأن يكون شبه الحساب في الثبات والاستقرار بالقائم على الرجل وأثبت له القيام على سبيل التخييل [1] .

وقد ذُكر هذا القيد " يوم الحساب " بصيغ أخرى كقوله : " والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين " [2] ، " ولا تخزني يوم يبعثون " [3] .

فتجد التعبير مرة بـ " يوم الحساب " ومرة بـ " يوم الدين " ومرة بـ " يوم يبعثون " وكلها من أسماء يوم القيامة ، وما أكثر أسماءَه في القرآن الكريم دلالة على شدة هوله ، وأنه مما ينبغي أن ينظر إليه ويحسب حسابه ، كما أن كثرة أسمائه دلالة على أنه من الأهمية بمكان ولاشك أن كل اسم يبرز خاصية معينة " فيوم الحساب " يشير إلى أن الناس توزن أعمالهم في هذا اليوم وتحاسب عليها وتجزي بها خيراً كانت أم شراً ، كما أن " يوم الدين " يشير إلى أن الناس فيه يُجْزَون بأعمالهم وفي المثل كما تدين تدان أي : كما تُجَازِي تُجَازَى أو كما تفعل يُفْعَل بك ، [4] كما أن " يوم يبعثون " يشير إلى بعث الناس وإحيائهم من قبورهم بعد موتهم ، وهكذا كل صفة من صفات هذا اليوم لها مدلول خاص ، وإشارة مقصودة لا ينبغي أن تهمل ويسوي بين هذه الألفاظ في الدلالة كما فعل الزمخشري عندما عرض لتفسير قوله تعالى : " قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ " [5] سوَّى بين هذه الألفاظ " يوم الحساب " ، " يوم الدين " ، " يوم يبعثون " و " يوم الوقت المعلوم " ، وأغفل ما فيها من إشارات فقال : " يوم الدين " و "

---

(1) راجع الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨٢ ، وزاده ـ ٣ / ١٤٠ ، والألوسي ٨ / ٧٠١ ، وحاشية الجمل ٢ / ٥٣١ .

(2) الشعراء ٨٢ .

(3) الشعراء ٨٧ والأعراف ١٤ .

(4) راجع اللسان مادة " دين " .

(5) الحجر ٣٤ ـ ٣٨ .

يوم يبعثون " و " يوم الوقت المعلوم " في معنى واحد ، ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة " [1] .

وما جعله الزمخشري في معنى واحد ونظائره في القرآن من أسماء يوم القيامة يحتمل بحثاً ضافياً تحدد فيه المقامات وتذكر فيه مناسبة هذا الوصف أو ذاك لسياقه ، وتذكر فيه دلالته ، وعندها يظهر أنه لا يصح وضع وصف مكان آخر ، ولا تغييره ، لأنه عندئذٍ تزول كثير من الفوائد ، وتتلاشى كثير من الفحاوي والدلالات والمناسبة بين السياق .

كما أن قول الزمخشري : " في معنى واحد " يفهم منه ، أنك لو وضعت " يوم الدين " مكان " يوم يبعثون " أو " يوم الوقت المعلوم " مكان " يوم الدين " ، وما إلى ذلك من ألفاظ القرآن التي تتحد مرة وتختلف أخرى ، لاستقام الأسلوب ولم ينتقص من فحاويه ودلالاته شيء . وهذا ما لم يقل به أحد لأن أساليب القرآن ، ومفرداته مقصودة بألفاظها وترتيبها لو غُيّر منه حرف أو كلمة زال الكثير من الأسرار ، وانعدمت كثير من الدلالات والأغراض ، فالألفاظ مقصودة ، وتغايرها مراد ، علم ذلك من علم ، وجهل من جهل .

---

[1] الكشاف ٢ / ٣٩١ .

الموطن الثالث

دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء

جاء هذا الموطن في سورة الشعراء في قوله تعالى : " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " (الآيات : ٦٩ ــ ٨٩) .

وبالنظر في السمات العامة للآيات تجد أن لفظ " رب " تكرر مرتين " إلا رب العالمين " ، " رب هب لي حكما " ، ولفظ الجلالة مرة واحدة " أتى الله بقلب سليم " كما ذكر ضميره تعالى الظاهر " هو " ثلاث مرات : " الذي خلقني فهو ... والذي هو يطعمني ... وإذا مرضت فهو ... " كما ورد ضميره ــ تعالى ــ المستتر في اثنى عشر موطناً في قوله " ... خلقني ... يهدين ... يطعمني ويسقين ... يشفين ... يغفر ... هب ... وألحقني ... واجعل ... واجعلني ... واغفر لأبي ... ولا تخزني ... " .

وهذه السمات تظهر مدى الضراعة التي تشيع في الآيات ، وأن أسماءه تعالى مظهرة ومضمرة تشيع في الأسلوب وهذا ما يناسب مواطن الدعاء والمناجاة .

والآيات مشهد متكامل لا ينبغي أن تنفصم عراه ، أو تترك حلقة من حلقاته ، فالآيات الأول وإن كانت حواراً بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وقومه إلا أن هذا الحوار متصل اتصالاً وثيقاً بالدعاء ، وهذا الدعاء ناتج عن الحوار ، ولك أن تنظر في الدعاء والحوار فتجدهما مقدمة أفضت إلى نتيجة ، ونتيجة أُخذت من مقدمة، وهذا الدعاء في قوله: " رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " جاء بعد حوار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه ، هذا الحوار أفسح

مكاناً كبيراً للعقل ليتدبر ويتفكر في أسئلة طرحت لا يجاب عنها إلا بعد طول أناة، فالبداية المثيرة التي تبدأ بها الآيات فيها لفت للانتباه واستدعاء للإنصات " واتل عليهم نبأ إبراهيم " والتلاوة : القراءة و " نبأ إبراهيم " خبره العظيم الشأن المتضمن للعظات والعبر، والأمر بتلاوة هذا النبأ على القوم لما فيه من تذكير العرب بسيرة أبيهم الذي يفخرون بالانتساب إليه لعلهم يعتبرون بعداوته للأصنام ، وإبطاله لعبادتها ، ويثوبون إلى رشدهم ، وأضيف النبأ إلى إبراهيم عليه السلام دون قومه مع أنهم طرف فيه ، لما أنه الأصل فيه ، إذ كان البادئ بالدعوة إلى عبادة الواحد القهار ونبذ عبادة الأصنام ، كما أن العرب يقدرون إبراهيم عليه السلام نفسه ، ويرغبون في سماع أخباره [1] .

والسؤال الأول الذي طرحه سيدنا إبراهيم على قومه " ما تعبدون " و " ما " اسم استفهام يُسأل بها عن حقيقة الجنس " وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء ، كما تقول للتاجر : ما مالك ؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق ، ثم تقول له : الرقيق جمال وليس بمال "[2] .

فالاستفهام صوري أراد به افتتاح المجادلة معهم فألقى عليهم السؤال ليكونوا هم المبتدئين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم فتلوح لهم من خلال شرح ذلك لوائح ما فيه من فساد ، لأن الذي يتصدى لشرح الباطل يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر مما يشعر بذلك من يسمعه ، ولأنه يعلم أن جوابهم ينشأ عنه ما يريده من الاحتجاج على فساد دينهم [3] .

كما أن هذا السؤال يسألهم فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام عن حقيقة ما يعبدونه ، لأنه ثبت في عقل كل إنسان أن المعبود لابد أن يكون جديراً بالعبادة وإلا ما صحت عبادته ، وهو يعطي مجالاً للسائل لأن يُعدِّد مزايا الإله الذي يعبده ، حتى يقيم الحجة على السائل ليسلِّم بصحة هذه العبادة ، ولكن الإجابة جاءت قاصرة قصر الآلهة المعبودة ، وعاجزة عجزها حيث اعترفوا صراحة بأن ما يعبدونه أصناماً ، " قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين " ، وفي إتيانهم بهذا اللفظ " أصناما " ما فيه ، فهو : " ينبئ بأنهم لم يكونوا يملكون إنكار أنها أصنام منحوتة من الحجر ، وأنهم مع ذلك يعكفون عليها ، ويدأبون على عبادتها ، وفي هذا نهاية السخف "[4].

ومع ما في هذه الإجابة من العجز والتسليم بفساد ما يعبدون ففيها ما ينبئ عن ابتهاجهم

---

(١) راجع : البحر المحيط ٨ / ١٦٢ ، والرازي ١٢ / ١٣٢ ، والألوسي ١٣ / ٢٢٤ ، وحاشية الشهاب ٧ / ١٨٧ .

(٢) الكشاف ٣ / ١١٦ .

(٣) التحرير والتنوير ١٩ / ١٣٨ .

(٤) الظلال ٥ / ١٦٠٢ .

بهذه العبادة الفاسدة حيث أطالوا في الجواب بقولهم " نعبد أصناما فنظل لها عاكفين " وكان يكفيهم في الجواب أن يقولوا " أصناما " ولكن أطالوا جوابهم إظهاراً لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بهذه العبادة ، يقول الزمخشري : " فإن قلت " ما يعبدون " سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا : أصناما ... قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصّة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين فاشتملت على جواب إبراهيم ، وعلى ما قصدوه من الابتهاج والافتخار ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم " نعبد " " فنظل لها عاكفين " ولم يقتصروا على زيادة " نعبد " وحده [1] .

و" نظل" هنا الأحسن أن تكون بمعنى ندوم لا كما قال الزمخشري " وإنما قالوا " نظل " لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل " [2] لأن مقام الافتخار يناسبه المعنى الأول ، ومن ثم جزم به البيضاوي وغيره [3]، كما أن العابد حينما لا يداوم على عبادته يشعر بالتقصير في حق معبوده ، فكيف يبتهجون بعبادتها ثم يتركونها ليلاً ؟ !! واختيار اللام دون على في قوله " فنظل لها " لإفادة معنى زائد كأنهم قالوا : نظل لأجلها مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها ، وهذا أيضاً من جملة إطنابهم [4] ، وأيضاً فإن " على " تفيد الاستعلاء ، وفي التعبير بما يدل على استعلائهم على آلهتهم شيء من المهانة والتحقير ولا يتناسب هذا مع التقديس والإجلال اللذين يحيطان بهما الآلهة ، فكان التعبير باللام دون " على " .

والفصل بين قالوا في قوله : " قالوا نعبد أصناماً ... " وما قبلها للاستئناف البياني على أنها جواب عن سؤال تقديره : فماذا قالوا في جوابه ؟ وعلى هذا كل ما فيه القصة من قال وقالوا ، وهذا نهج مسلوك في حكاية الحوارات [5] .

---

(1) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٦ .

(2) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٦ .

(3) راجع البيضاوي بهامش حاشية الشيخ زاده ــ ٣ / ٤٧٢ ، وحاشية الشهاب ٧ / ١٨٧ ، وحاشية الجمل ٣ / ٢٨١ ، وتفسير ابن عطية ٤ / ٢٣٤ ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤١٣ هــ / ١٩٩٣ م .

(4) الألوسي ١٣ / ٢٢٥ .

(5) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٤٠ ، مطبعة المدني ط / ٢ ١٤١٠ هــ / ١٩٨٩ م الخانجي .

وهذا العجز في الإجابة مع الافتخار بهذه العبادة والإطناب في الحديث عنها أعطى سيدنا إبراهيم عليه السلام الفرصة لأن يستمر في مخاطبة عقولهم فكان هذا السؤال : " قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون " ؟ !! .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ فعدم سماع الأصنام أو نفعها وضرها متحقق عندهم ، ومن القوم من جوَّز أن يكون السماع هنا بمعنى الإجابة كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أعوذ بك من دعاءٍ لا يُسْمَع " ـ أي : لا يجاب ـ ، ومنه قوله عز وجل : " إنك سميع الدعاء " أي هل يجيبونكم والأولى إبقاؤه على ظاهر معناه فإنه أنسب بالمقام ، وأبلغ في السخرية والاستهزاء فإن الذي لا يسمع أصلاً أحط منزلة من الذي يسمع ولا يتمكن من الإجابة أو تحقيق ما يطلب منه [1] .

ويأتي هذا السؤال مقدماً ما حقه التقديم ومؤخراً ما حقه التأخير لأن امتلاك جلب النفع ودفع الضرر ، لا يكون إلا لمن يسمع، مع أن من يسمع قد لا يملك نفعاً ولا ضراً ولكن سألهم بهذا لأن ما يعبدونه أدنى منزلة من الذي يسمع ولا يستطيع جلب نفع أو دفع ضر ، فليكن هذا السؤال لبنة أولى في تفنيد مزاعمهم ، وإظهار فساد عبادتهم ، ويأتي التعبير بالمضارع "يسمعونكم ، تدعون ، ينفعونكم ، يضرون " وكان الظاهر أن يُؤتى بالماضي : هل سمعوكم إذ دعوتموهم ، أو نفعوكم أو ضروكم ، وأيضاً فإن " إذ " ظرف لما مضى والزمان الماضي لا يكون ظرفاً لما سيكون ، ولذا يقول أبو حيان : " لابد من التجوز في " إذ " بأن يجعل بمعنى " إذا " أو التجوز في المضارع بأن يجعل بمعنى الماضي واعتبار الاستحضار أبلغ في التبكيت " [2] ، فلو اعتبر التجوز في المضارع يكون سر التجوُّز لأنه يخاطب أقواماً عابدين للأصنام لهم خبرة وتجربة في التعامل معها ، وهو يسألهم عن رصيد هذه التجربة وثمرة هذه المعاملة سؤال تبكيت واستهزاء وهو يفيد القطع بعدم السمع أو النفع والضر [3] .

والتعبير يوحي بأن المشهد قائم تراه الأعين ، والحوار ماثل أمام الجميع وللجميع ، فالأصنام لم تَسمع ولم تُسْمع ، والمشركون لم يُنفعوا ولم يُضَرُّوا في الحال والمآل .

---

(1) راجع الألوسي ٣ / ٢٢٦ .

(2) راجع البحر المحيط لأبي حيان ٨ / ١٦٣ .

(3) راجع : الكشاف ٣ / ١١٦ ، وزاده ـ ٣ / ٤٧٢ .

إن هذا العدول يوسع دائرة التعبير ويخرجه عن خصوص سببه ، ليشمل كل مَنْ هذه صفته ، والأسئلة التي طرحت على قوم إبراهيم موجهة أيضاً لمشركي العرب لاتحادهم في هذه العبادة ، وهي موجهة أيضاً لمن يأتي بعدهم ، فالتعبير مع وجازته قد تخطّى حدود الزمان والمكان ، وأصبح المشهد ماثلاً تتملاه العين ويعيشه الخيال ، في كل عصر ، ما تُليت الآيات ، وشنّفت مسامع المؤمنين ، وقرعت آذان المنكرين .

ولما كان هذا السؤال لا يملكون الإجابة عنه إلا بالنفي الصريح ، لأن الحقائق تكذبهم لو أرادوا التملُّص أو التخلُّص بسفسطة لا تفيد ولا تقنع المجيب قبل السامع ، تركوا الجواب وانتحوا ناحية الاعتذار والتعلل قائلين : " بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون " وقُدِّم المفعول " كذلك " للفاصلة ليتلاءم النغم مع ما قبله وما بعده ، وبهذا التعلل والاعتذار قد سلّموا بأن الأصنام بمعزل عما ذكر واضطروا إلى إظهار أن لا سنَد لهم سوى التقليد ، وهم في مناظرة للدفاع عن أحقيتها بالعبادة ولكنهم أجابوا بلا شيء : " فهم لا يشكون في أن إبراهيم إنما يتهكم ويستنكر ، وهم لا يملكون حجة لدفع ما يقول فكانت هذه الإجابة المخجلة كما يقول صاحب الظلال [1] .

وهي إجابة تتهم عقولهم ، وتسفّه أحلامهم ، فهم قد أغفلوا عقولهم ، وأعفوها من النظر المتدبر في القضايا حتى لو كانت هذه القضايا تمس عقيدتهم ، وتتصل بديانتهم .

وبعد هذا العجز عن إقامة الحجة ، جاءت لحظة التحدي الكبرى لحظة إعلانه عداوته لهذه الآلهة ، مع ما لها من جبروت وقهر في نفوسهم ، فهو ـــ عليه السلام ـــ غير مبالٍ بما يناله من أذى منها ـــ على زعمهم ـــ .

" قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين" .

هنا . وبعد الأسئلة التي طرحت ممزوجة بالتهكم والاستهزاء والأجوبة التي لا تجيب ، والارتكان إلى التقليد ، وعدم النظر والتفكر، سنحت الفرصة لسيدنا إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ أن يفاجئهم ـــ ربما بما يتوقعون ، وربما بما لا يتوقعون ـــ وأن يهز عقولهم هزّاً كما يقول صاحب الظلال وأن يوقظها على أمر جلل ، فما يعبدونه وآباؤهم الأقدمون " عدو لي " لأن هذه العبادة غير ناتجة عن تفكير ، ولا ثمرة لإعمال العقل والتدبير، وأنا لست بهذه الصورة المذرية ، ولا

---

[1] راجع : حاشية الجمل٣ /٢٨٢، والألوسي ١٣ /٢٢٧، وأبو السعود ٤ / ٢١٧ ، والظلال ٦ / ٢٦٠٢

صاحب العقل النائم الذي لا يفكر فيما يعرض له :" أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين " .

والاستفهام يحمل معنى الإنكار والتوبيخ بعبدة الأصنام، وهو يتضمن بطلان آلهتهم، وبطلان عبادتها ، وأنه ضلال قديم ، لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه لأن المعنى : أعلمتم أيَّ شيء عبدتم أنتم ومن قبلكم ، وأنها لا تقدر على ضر أو نفع ؟ [1] .

ولفظ " الأقدمون " يفهم منه الامتداد وفي ذلك دلالة على قدم هذا الضلال وسريانه وامتداده ، فهو قد سرى من الآباء إليهم ، وهم قلدوا ولم يفكروا .

ووصف الأصنام بالعداوة في قوله : " فإنهم عدو لي " وهي جمادات لا تعقل واستعمال ضمير العقلاء معها " فإنهم " ولم يقل " فإنها " وذلك لأنهم لما عبدوها ونزلوها منزلة الأحياء العقلاء أطلق لفظ العداوة عليها ، واستعمل معها ضمير العقلاء ، فشبهت بالعدو على الاستعارة ، أو على الإسناد المجازي ، حيث أطلق لفظ السبب الحامل وهو الشيطان على مُسَبَّبه وهي الأصنام [2] .

وفي ذلك من التهكم والاستهزاء ما لا يخفى فالأصنام غير عاقلة ، وهي أدنى درجة من العقلاء ـــ وحتى لو كانت عاقلة وارتفعت درجتها إلى درجة العقلاء ، وهذه أقصى درجة في الرفعة تبلغها ـــ لو بلغتها ـــ ما استحقت العبادة والتألية ، فكيف وهي في أحط الرتب ، وأدنى المنازل ؟ !!

وفي استعمال المصدر " عدو " ولم يقل " أعداء " وذلك لأن التعبير بالمصدر فيه من القوة في المعنى ما ليس في غيره .

ثم هذا التعريض البليغ حيث أسند العداوة إلى نفسه " فإنهم عدو لي " ومقصوده : فإنهم عدو لكم ، والتعريض أنفع في النصيحة من التصريح بها بأن يقول : فإنهم عدو لكم ، وانظر إلى كشف الزمخشري عن هذه الدقائق بريشة ناعمة ، وفكر رائق إذ يقول : " وإنما قال " عدو لي " تصويراً للمسألة في نفسه على معنى : أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وآراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا ، وبنى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا إلا ما أراده لروحه ،

---

(1) راجع : حاشية الشهاب الخفاجي ٧ / ١٨٨ ، والألوسي ١٣ / ٢٢٨ .

(2) حاشية الشيخ زاده ـــ ٣ / ٤٧٢ .

ليكون أدعى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه ، ولو قال فإنه عدو لكم ، لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل في باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التدبر" [١].

وهذا التوجيه أبلغ من جعل الأسلوب على القلب ، كما فعل ابن عطية وأبو حيان، لأن الأصنام لا تعادي وإنما هو عاداها [٢] ومع ما في هذا الأسلوب من التعريض يبقى فيه معنى الحقيقة واضحاً ، وهو أنه عليه السلام أعلن عداوته وتحديه لهذه المعبودات التافهة ، والأصنام العاجزة وكأنه يقول : " إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فلتخلص إليّ بالمساءة فإني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها " [٣] .

وقد حكى القرآن ذلك تأكيداً لهذا المعنى وإشادة بموقفه عليه السلام كما في قوله تعالى في سورة الممتحنة : " قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ " [٤] .

ففي آية الشعراء أعلن عداوته للأصنام ، وعدم موالاته لها ، وفي سورة الممتحنة أعلن هو ومن معه التبرؤ من الأصنام والكفر بها وبمن يعبدها ودوام العداوة بينهم حتى يرجعوا إلى عبادة الله تعالى ، وهذا دأبه ودأب الأنبياء جميعاً فدعوتهم واحدة ، وهي الدعوة إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام ،وفي هذا دلالة على أن الآيات الواردة في حق إبراهيم ــ عليه السلام ــ وفي غيره في السور المتفرقة ، والمواطن المتعددة ، سلسلة متصلة الحلقات ، متآخية ، شديدة الترابط ، كل موطن يؤكد نظيره أو يبنى عليه أو يسلمك لغيره ، وهذه من خصائص القرآن البارزة .

ثم يأتِ هذا الاستثناء في قوله : " إلا رب العالمين " وهو استثناء منقطع لأن " رب العالمين " ليس من بين الآلهة التي عبدوها ولذا يفسره الجلال المحلي بلكن على عادته بتفسير الاستثناء

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٦ .

(٢) تفسير ابن عطية ٤ / ٢٣٤ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٨ / ١٦٤ .

(٣) ابن كثير ٣ / ٣٣٨ .

(٤) الممتحنة ٤ .

المنقطع بلكن ، يقول : " ولكن رب العالمين فإني أعبده " أشار به إلى أن الاستثناء منقطع أي : لكن رب العالمين ليس كذلك ، وهو وليِّ في الدنيا والآخرة ولا يزال متفضلاً عليَّ فيهما ، ويحتمل أن يكون متصلاً على أن الضمير " فإنهم " لكل معبود عبدوه وكان من آبائهم من عبد الله [1] .

وفي جعل الاستثناء متصلاً ترى الاحتياط في القول ، والدقة الواعية في التعبير في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق ، فقد يكون من آبائهم الأقدمين ، من عبد الله قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف ، وقد يكون من عبد الله ولكن أشرك معه آلهة أخرى مُدَّعاة [2] .

ثم يسترسل سيدنا إبراهيم في وصف " رب العالمين " بقوله : " الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين " وهو استرسال مطلوب ومقصود لأن الحديث كله ينصب على هذا الغرض : " فالحلقة التي تعرض هنا من قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هي حلقة الرسالة إلى قومه ، وحواره معهم حول العقيدة ، وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله ، والتذكير باليوم الآخر " [3] .

" وتستشعر من صفة إبراهيم لربه ، واسترساله في تصوير صلته به أنه يعيش بكيانه كله مع ربه ، وأنه يتطلع إليه في ثقة ، ويتوجه إليه في حب ، وأنه يصفه كأنه يراه ، ويحس وقع إنعامه وأفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه ، والنغمة الرخيّة في حكاية قوله في القرآن ، تساعد على إشاعة هذا الجو ، وإلقاء هذا الظل ، بالإيقاع العذب الرَّخي اللين المديد " [4] .

وسيدنا إبراهيم وصف رب العالمين هنا بثماني صفات هي : الخلق ـ الهداية ـ الإطعام ـ السُّقْيا ـ الإشفاء من المرض ـ الإماتة ـ الإحياء ـ غفران الخطيئة .

وهذه الصفات جاءت كما يقول صاحب الظلال في نغمة رخيَّة وإيقاع عذب لين مديد ، كما جاءت حسنة الترتيب إذ روعي فيها تقديم المقدم وتأخير المؤخر ، أضف إلى ذلك ما يحمله الأسلوب من خصائص ودلالات منها :

---

(1) تفسير الجلالين وحاشية الجمل عليه ٣ /٢٨٢، وتفسير أبي السعود ٣ / ٢١٨ ، والبيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٧ / ١٨٩ .

(2) راجع الظلال ٥ / ٢٦٠٢ .

(3) السابق ٥ / ٢٦٠٠ .

(4) السابق ٥ / ٢٦٠٣ .

في قوله : " الذي خلقني فهو يهدين " حذف مفعول " يهدين " ليعم كل ما هداه الله تعالى إليه من أمور المعاش والمعاد ، ولذا يقولون " لأنه يهدي كل مخلوق لما خُلق له من أمور المعاش والمعاد " [1] ، أو يقولون : " فهو يهدين " يريد أنه حين أتم خلقه ، ونفخ فيه الروح عقّب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كل ما يصلحه ويعينه " [2] ، وعندما خصّص الجلال المحلي الهداية بالدين بقوله : " الذي خلقني فهو يهدين " إلى الدين " نقل الجمل في توضيحها عبارة أبي السعود المعممة فقال : " قوله ـ أي المحلى ـ فهو يهدين إلى الدين " وغيره مما يهمني ويصلحني من أمور الدين والدنيا هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع " [3] .

ومع هذا التعميم المفاد من حذف المفعول جاء المضارع" يهدين" ليدل على الاستمرار التجددي فتكون الهداية متجددة مستمرة ، وما أبلغه من تعبير وأوجزه وأغزره !!!

كما جاء التعبير عن الخلق بالفعل الماضي " خلقني " وعن الهداية بالمضارع " يهدين" وإذا كان الفعل يدل على التجدد فإن التجدد في الماضي معناه : وجوده بعد أن لم يكن موجوداً [4]، وهذا مناسب للخلق لأن خلق الإنسان وقع على وجه لا يتجدد في الدنيا بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم ، وعبر عن الهداية بالمضارع، لأن الهداية مما يتجدد كل حين [5] .

وقوله : " والذي هو يطعمني ويسقين " يصح أن يكون من ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على شرفه وأهميته فقد ذكر الهداية أولاً وفسرها العلماء بأنها كل ما يصلحه ويحتاج إليه من أمور المعاش والمعاد ، ويدخل فيه الإطعام والسّقي فإعادته بالنص عليها للتنبيه على شرفه وأهميته .

وتجد تقديم الإطعام على السُّقيا وذلك لأن السُّقيا من توابع الإطعام وروادفه كما أن المرض كذلك .

ثم إن التعبير بقوله " يطعمني ويسقين " مقصود به أعم من لفظه ، فليس المراد مجرد الإطعام والسقيا " بل يدخل فيهما إعطاء جميع ما يتوقف الانتفاع بالطعام والشراب عليه كالشهوة

---

(1) البيضاوي بحاشي زاده ـ ٣ / ٤٧٣ .

(2) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٧ .

(3) راجع تفسير الجلالين وحاشية الجمل عليه ٣ / ٢٨٢ ، وتفسير أبي السعود ٤ / ٢١٨ .

(4) عروس الأفراح للسبكي ٢ / ٨٦ شروح .

(5) زاده ـ ٣ / ٤٧٣ .

وقوة المضغ ، والابتلاع والهضم والدفع ونحو ذلك واقتصر على ذكر الطعام والشراب من جملة ما يتوقف عليه انتظام حاله في الدنيا ونبَّه بذكرهما على ما عداهما " [1] .

فانظر إلى الإعجاز في هاتين الكلمتين " يطعمني ويسقين " حيث جمعتا كثيراً من النعم التي يتوقفان عليها فسبحان من قال فأعجز وصنع فأبدع .

كما تجد إسناد الأفعال إلى الله تعالى في الخلق والهداية والإطعام والسقيا والإماتة والإحياء ، وإسناد المرض إلى نفسه " وإذا مرضت " وقد حاول العلماء إدراك سر ذلك ومما قالوه : " أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه تأدباً كما قال تعالى آمراً المصلي أن يقول : " اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ " [2] فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حُذف فاعله ، وأسند الضلال إلى العبيد كما قالت الجن " وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً " [3] ، وكما قال الخضر : " فَأَرَدتُ أَنْ أَعِيبَهَا " [4] وقال : " فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ " [5] ، وكذا قال إبراهيم : " وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ"[6] .

وهذا أدب عالٍ ، وخلق رفيع إذ فيه إسناد الخيرات والفضائل إلى الله تعالى ، الذي لا يكون الخير إلا منه وهو أهل الرحمة وأهل المغفرة ، وفي إسناد الشرور والقبائح إلى النفس هضم للنفس وعدم تزكيتها بما يبطل العمل ، وجمهور المفسرين يرون هذا الرأي ويميلون إلى هذا التوجيه الذي اختصر الطريق رهبة من دخول سراديب الأساليب الإلهية وخوفاً من مضايق مسالكها التي يضل فيها الخبير فقالوا بالتأدب تأدباً لكن الإمام الزمخشري لم يرق له هذا التوجيه ربما لأنه رأى أن

---

(١) السابق ٣ / ٤٧٣ .

(٢) الفاتحة ٦ ، ٧ .

(٣) الجن ١٠ .

(٤) الكهف ٧٩ .

(٥) الكهف ٨٢ .

(٦) راجع ابن كثير ٣ / ٣٣٩ ، وحاشية الجمل ٣ / ٢٨٢ ، والظلال ٥ / ٢٦٠٣ .

سيدنا إبراهيم أسند الإماتة إلى الله تعالى وهي أشد من المرض فقال : " وإذا قال " مرضت " دون أمرضني لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ، ومن ثمَّ قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى ما سبب انقطاع آجالكم ؟ لقالوا التخم " [1] .

وهذا التوجيه ينكسر أيضاً بالمرض كما يقول ابن المنير : " والمعنى الذي أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت ، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه ، كذلك الموت الناشئ عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان ، وقد أضافه إلى الله تعالى " [2] .

وقد دافع ابن المنير عن الرأي الأول وردَّ كلام الزمخشري وفرَّق بين نسبة الموت ونسبة المرض إلى الله تعالى في مقتضى الأدب : " بأن الموت قد عُلم واشتُهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يَخُصُّ ولا كذلك المرض ، فكم من معافى منه قد بغته الموت ، فالتأسِّي بعموم الموت لِعِلَّةٍ يسقط أثر كونه بلاءً فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى ، وأما المرض فلما كان مما يَخصُّ به بعض البشر دون بعض كان بلاءً محققاً فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى ، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه ويؤيّد ذلك أن كل ما ذكره مع الموت أخبر عن وقوعه بَتّاً وجزما لأنه أمر لابد منه ، وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقروناً بالشرط " وإذا مرضت " وكان ممكنا أن يقول : يمرضني فيشفيني كما قال في غيره فما عدل عن المطابقة والمجانسة المأثورة إلا لذلك " [3] .

وكلام ابن المنير قيم ما عدا قوله : " فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك " فالعدول عن المطابقة المجانسة المأثورة قد يكون لذلك ، وقد يكون لغير ذلك مما لم يدركه ابن المنير ولا غيره ، لاسيما وهو يعلم أنه يتكلم عن أسرار الأساليب الإلهية وهو يدرك معنى هذا ، فلو أنه قال عبارة شك كلعل أو ربما لكان أولى من استعماله أسلوب القصر الذي ينادي ببعده عن الصواب في هذه المقولة .

ومسألة إسناد الخير إلى الله تعالى والشر إلى النفس في القرآن تحتاج إلى بحث مفصل بدأت فيه أثناء كتابتي هذا البحث وأسأله العون والتوفيق .

---

(1) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٧ .

(2) الانتصاف بهامش الكشاف ٣ / ١١٧ .

(3) الانتصاف بهامش الكشاف ٣ / ١١٧ ، وراجع حاشية الشهاب ٧ / ١٩١ .

وفي قوله : " والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين " تجد التعبير بلفظ أطمع وفيه معنى الرجاء والأمل وهو مناسب لذل المسالة وخضوع العبد وتمسكنه بين يدي ربه ، كما أنه دليل على شدة خوفه عليه السلام مع منزلته وخَلّته ، ومجيء كلمة " خطيئتي" وإضافتها إلى ضمير نفسه ، وهو النبي المعصوم والرسول الأواه فيه إشارة إلى هضم نفسه ـــ عليه السلام ـــ وتعليم أمته أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر منها ، ويطلبوا أن يغفر لهم ما فرط منهم ، وتنبيه لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها ، فإن حاله عليه السلام ، مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته في الغاية القاصية كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال هؤلاء المغمورين في الكفر وفنون المعاصي والخطايا [1] ، ثم يأتي تقييد المغفرة بـــ " يوم الدين " وسبق أن أثر المغفرة يظهر يومئذٍ وهو في الدنيا خَفيٌ لا يُعلم .

وبالنظر في الحروف المستعملة تجد الفاء في قوله : " الذي خلقني فهو يهدين " والواو في قوله : " والذي هو يطعمني ويسقين " وإذا الشرطية في قوله : " وإذا مرضت فهو يشفين " وثم " والذي يميتني ثم يحيين " ، وسر مجيء الفاء هو أن الهداية تأتي عقيب الخلق مباشرة دون تراخٍ ، لأنه تعالى يهدي الإنسان إلى كل ما يهمه ويصلحه هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار ، أما التعبير بالواو فلأنه لا ترتيب بين الإطعام والسّقي فقد يشرب الإنسان قبل الطعام أو أثنائه أو بعده ، فكانت الواو أنسب لأنها في غالب أمرها لمطلق الجمع ولا ترتيب بين الإطعام والسقي ، أما التعبير بثم فلاتساع الأمرين ـــ الإماتة والإحياء ـــ وقد أشاروا إلى سر المجيء بها فقالوا : " عطف هنا بثم خلاف

---

(1) راجع البيضاوي بهامش حاشية زاده ـــ ٣ / ٤٧٣ ، وابن عطية ٤ / ٢٣٥ ، وأبا السعود ٦ / ٢٤٩ .

ما قبله لاتساع الأمر بين الإماتة والإحياء ، لأن المراد بها الإحياء في الآخرة "[1] .

أما الإتيان بإذا الشرطية في قوله " وإذا مرضت فهو يشفين " فالملاحظ أنه غُيِّر الأسلوب فجيء بإذا الشرطية ، والشرط غير متحقق وقوعه لأن المرض لما كان يخص بعض البشر دون بعض فقد يحدث وقد لا يحدث أورده مقروناً بالشرط ، وكان يمكنه أن يقول: والذي أمرضني فيشفيني ، ويؤكد ذلك أن كل ما ذكر مع غير المرض جاء بصيغة الجزم والقطع في قوله " الذي خلقني فهو يهدين " والذي هو يطعمني ويسقين .... والذي يميتني ثم يحيين "[2] .

ولك أن تنظر في هذا الترتيب حيث تظهر لك محاسنه ، وتأخذ بلبك أوائله وأواخره حيث بدأ بالخلق ثم عقبه بالهداية التي يحتاجها المخلوق وهي هداية إلى ما يتطلبه وما يصلحه ثم خصَّ بالذكر الإطعام والسقي مع أنهما داخلان في الهداية لأهميتهما إذ بهما قوام الحياة ، ومادام الجسد يُطْعَم ويُسْقى فقد يحدث له المرض المترتب عليهما ، ولما كان المرض قد ينشأ عنه الموت جاء عقيبه " والذي يميتني ثم يحيني " وقد بان أثر بلاغة الحروف والأدوات المستعملة في الأسلوب .

كما جاء ضمير الفصل " هو " الذي يفيد القصر في قوله :

" الذي خلقني فهو يهدين " .

" والذي هو يطعمني ويسقين " .

" وإذا مرضت فهو يشفين " .

وذلك لما كان يتصوَّر الهداية والإطعام والسَّقي والشفاء من غير الله تعالى جيء بهذا الضمير ليفيد قصر هذه الأشياء عليه تعالى فلا يهدي ولا يطعم ولا يسقي ولا يمرض ولا يشفي على الحقيقة إلا الله تعالى ، وذلك أنهم كانوا يقولون : المرض من الزمان والأغذية ، والشفاء من الأطباء

---

(1) حاشية الجمل ٣ / ٢٨٢ ، وانظر الشهاب الخفاجي ٧ / ١٩١ .

(2) راجع الانتصاف بهامش الكشاف ٣ / ١١٧ ،والألوسي ١٣ / ٢٣٣ .

والأدوية ، فأعلم إبراهيم أن المؤثر في جميع ذلك ليس إلا رب العالمين [1] .

وفي المقابل لم يأت ضمير الفصل في قوله : " والذي يميتني ثم يحيين " لأنه لا يتصور الإحياء والإماتة إلا من الله تعالى ، فجاء هذا الأسلوب هكذا ليناسب الموقف ويدل عليه .

كما جاء تكرير اسم الموصول " الذي " أربع مرات ، لتكون جملة الصلة بياناً لعلة الجزاء ، وكان يمكن الاكتفاء بالموصول الأول والعطف عليه وللإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى ، مستقل في إيجاب الحكم حقيقة بأن تجري عليه بحيالها ولا تجعل من روادف غيرها [2] .

وبعد أن أثنى سيدنا إبراهيم على ربه بما هو أهله أخذ في هذا الدعاء الذي خلُص إلى طلب أمور الآخرة فهو دعاء يتجه إلى آفاق أعلى تحركه مشاعر أصفى ، ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه ، والذي ذاق فهو يطلب المزيد ، والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد [3] .

" رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " .

وهذا الدعاء جاء عقيب الثناء على الله تعالى ، وذكر نعمة عليه من مبدأ خلقه إلى يوم بعثه ، وهذا أدعى إلى دعائه ومناجاته تعالى ، وقد ذكر سيدنا إبراهيم هنا ست دعوات هي :

١ – أن يهبه الله زيادة العلم والعقل والنبوة وغير ذلك " رب هب لي حكما " .

٢ ـ أن يجعله مع الصالحين في الدنيا والآخرة " وألحقني بالصالحين " .

٣ ـ أن يكون له ذكراً جميلاً وثناءً حسناً بعد موته ، يُذْكر به ويُقْتَدى به في الخير: " واجعل لي لسان صدق في الآخرين " .

٤ ـ أن يجعله من ورثة جنة النعيم : " واجعلني من ورثة جنة النعيم " .

٥ ـ طلب المغفرة لأبيه:"واغفر لأبي إنه كان من الضالين"، وهذا مما رجع عنه عليه السلام.

---

(١) راجع حاشية زادة ـ ٣ / ٤٧٣ .

(٢) راجع تفسير أبي السعود ٤ / ٢١٨ ، والجمل ٣ / ٢٨٢ ، والألوسي ١٣ / ٢٣١ .

(٣) راجع الظلال ٥ / ٢٦٠٤ .

٦ ـ طلب أن يجيره من الخزي يوم القيامة : " ولا تخزني يوم يبعثون " .

وكما كان التواضع سمة سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يثني على خالقه كان وهو يدعوه فها هو النبي الرسول يطلب من ربه أن يهبه الحكمة وأن يلحقه بالصالحين ، وأن يجعل له لسان صدق في الآخرين ، وأن يجعله من ورثة جنة النعيم ، وأن لا يخزه يوم القيامة ، وأيُّ حكمة وصلاح ولسان صدق وإرث للجنة وعدم خزي بعد أن اختاره الله للرسالة وجعله خليلاً وأوّاها حليماً ، إنه تواضع الأنبياء ، وعدم التعويل على شيء سوى على فضل الله ورحمته ، ولذا يقول الزمخشري : " وهذا أيضاً من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور " [١] .

وإذا نظرت إلى النظم القرآني تجده قد صاغ هذه المعاني في نظم بديع حوى أفانين البلاغة وحاز على كمال البراعة والبداعة .

فتجد حذف ياء النداء في " رب " وقد سبقت الإشارة إليه .

كما تجد التعبير بلفظ الهبة " رب هب لي " وهي كما يقول الراغب : " " أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض " [٢] وفيه دلالة على ثقة إبراهيم في ربه وأنه المعطي من غير مقابل ولذلك كثر استعمال هذا اللفظ في الدعاء وفي تذكير الله عباده بنعمه عليهم ، أو في تذكُّر العباد لنعم الله تعالى عليهم فمن الأول قوله تعالى :

" فَهَبْ لِي مِن لَدُنكَ وَلِيّاً " [٣] .

" رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ " [٤] .

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٨ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الآصفهاني٢ / ٦٩١، ط / أولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧ م ، الناشر : مكتبة نزار مصطفى الباز ـ السعودية .

(٣) مريم ٥ .

(٤) الفرقان ٧٤ .

" قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ " [1] .

ومن الثاني قوله تعالى :

" وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا " [2] ، " وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ " [3] .

" وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا " [4] .

" إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا " [5] .

ومن الثالث قوله تعالى : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ " [6] ، " فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ " [7] ، وتنكير لفظ "حكماً " يفيد العموم والشمول ولذا تجد المفسرين يفسرونه مرة باللب ومرة بالنبوة ومرة بالقرآن وهذا ناشئ من تنكير اللفظ وهو يشمل أكثر مما قالوه.

وفي قوله : " واجعل لي لسان صدق في الآخرين " طلب من ربه أن يجعل له صيتاً حسناً وثناءً جميلاً بين الناس ، ويحتمل أن يكون طلب إنساناً صادقاً يجدد أصل دينه ، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نصَّ على ذلك في قوله تعالى : " ربنا

---

(١) ص ٣٥ .
(٢) الأنعام ٨٤ .
(٣) ص ٤٣ .
(٤) مريم ٥٣ .
(٥) مريم ١٩ .
(٦) إبراهيم ٣٩ .
(٧) الشعراء ٢١ .

وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم " [1] ، وعلى هذا ففي الأسلوب حذف والتقدير صاحب لسان صدق ، أو مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان فكأنه قال : اجعل لي داعياً إلى الحق صادقاً في الآخرين [2] .

ثم يأتي قوله : " واجعلني من ورثة جنة النعيم " ، وفيه التعبير بلفظ " ورثة " وأصل الإرث : انتقال الشيء إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد [3] ففي الأسلوب استعارة وهو : أن تشبه الجنة التي استحقها العامل بعد فناء عمله بالميراث الذي استحقه الوارث بعد فناء مورثه [4] وأيضاً فإن هذا اللفظ يوحي بأن المطلب غالٍ وهنيء فكما يقال لكل من حصل له شيء من غير تعب قد ورث كذا يقال لمن حُوِّل شيئاً مُهْنئاً أُوْرِث [5] .

ثم التعبير بجنة النعيم ، والتعبير بلفظ الجنة وحده يفهم منه هذا المعنى ولكن جاء التعبير وقد أضيفت الجنة إلى النعيم من إضافة المحل للحال فيه تأكيداً لإبراز هذه الصفة والتنويه بها [6] .

وقوله : " واغفر لأبي إنه كان من الضالين " مما رجع عنه عليه السلام .

وقوله : " ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم " .

النهي في قوله : " ولا تخزني " خرج إلى معنى الدعاء ، والخزي إما بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء ، وقد حُمل دعاء سيدنا إبراهيم هنا على طلب ترك المعاتبة على ما وقع منه مما هو من قبيل ترك الأولى ، أو على ترك تعذيبه وهو مبني على أنه لا يجب على الله شيء وأنه

---

(1) البقرة ١٢٩ .

(2) راجع حاشية زاده ـ٣ /٤٧٣ ، والجمل ٣ / ٢٨٣، والشهاب ٧ / ١٩ ، والألوسي ١٣ / ٢٣٨ .

(3) المفردات للراغب ٢ / ٦٧٢ ، مكتبة نزار مصطفى الباز .

(4) زاده ـ ٣ / ٤٧٤ .

(5) المفردات للراغب ٢ / ٦٧٢ ، مكتبة نزار مصطفى الباز .

(6) الجمل ٣ / ٢٨٣ .

يحسن منه كل شيء وأن خفاء العاقبة تقتضي ذلك ، وخزي كل واحد بما يليق به [1] .

كما يحتمل أن يكون هذا من قبيل هضم النفس والتواضع والخوف من خزي هذا اليوم الذي يعلم سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ قدره ومكانة الناس فيه ، وهو مع كونه رسولا فهو بشر يجري عليه ما يجري على البشر ، فربما يكون قد نظر إلى هول هذا اليوم واستشعر بشريته وصفات البشر التي تُسلم إلى هذا الخزي فطلب من ربه ألا يفعل به ذلك في هذا اليوم مع أنه الرسول المعصوم .

ويقيد سيدنا إبراهيم طلبه عدم الخزي بيوم يبعثون لأنها تظهر فيه أكثر ، وهي فيه أشد وأفظع ، ويطنب في وصف هذا اليوم بقوله " يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم " ، وهذا الاستثناء وجهه العلماء بوجوه : الأول : أنه إذا قيل لك هل لزيد مال وبنون ؟ فتقول : ماله وبنوه سلامة قلبه ، تريد نفي المال والبنين عنه واثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك ، الثاني : أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين في معنى الغنى كأنه قيل : يوم لا ينفع غني إلا غنى من أتى الله بقلب سليم ، لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه ، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه ، وعلى هذا يكون في قوله : " مال ولا بنون " مجاز مرسل حيث عبر بالجزء وأراد الكل لأن امتلاك المال جزء من الغنى وليس كل الغنى ، الثالث : أن نجعل (من) مفعولا لـ (ينفع) أي : لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال [2] .

---

(1) زاده ـ ٣ / ٤٧٤ .

(2) راجع : الرازي ١٢ / ١٤٥ ، والبحر المحيط ٨ / ١٦٨ ، وزاده ـ ٣ / ٤٧٤ .

الموطن الرابع

دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة الصافات

جاء هذا الموطن في قوله تعالى : " وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ " الآيات (٩٩ ـ ١٠١) .

وهذه الآيات تأتي في قصة إبراهيم في سورة الصافات ، وقصة إبراهيم في هذه السورة : " تجيء في حلقتين رئيستين : حلقة دعوته لقومه وتحطيم الأصنام ، وهمهم به ليقتلوه ، وحماية الله له ، وخذلان شانئيه " [1] وذلك في قوله تعالى : " وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ " [2] .

وهذه الحلقة تكررت من قبل في سور القرآن عرض البحث لحلقة شبيهة لها في سورة الشعراء في الموطن السابق ، وحلقة جديدة لم تُعرض في غير هذه السورة وهي الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء والتي اشتملت على دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام " وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

---

(١) الظلال ٦ / ٢٩٩٢ .

(٢) الصافات ٨٣ ـ ٩٨ .

الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ *إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " (١) .

والآيات تحكي موقفاً إنسانياً غاية في التأثير ، وغاية في تفصيل أمر الله ، والأسلوب مؤثر كاشف لدقائق النفس ، نفس سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ملفوفاً بالمؤثرات الخارجية والداخلية ، تتملاه العين بجمال ، ويعيشه العقل بجلال ، فشخصية إبراهيم يملؤها العزم ، ويفيض منها الثقة ، تقرأ ذلك في التعبير ، وتحسه من خلال التصوير فالتعبير : " وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين " يشحن بالمؤكدات الأسلوبية " إنّ " واسم الفاعل " ذاهب " الذي يدل هنا على الثبوت والاستمرار و " إلى ربي " حيث تشعر أنه مبتغاه وغايته سواء أكان الذهاب حسياً كما قالوا : أي : مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ، قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة زوجته إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام ، أم كان الذهاب معنوياً : " أي : ذاهب بعملي وعبادتي وقلبي ونيّتي ، وعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن " (٢) .

وقد أدمج صاحب الظلال هذين المعنيين في أسلوب رائق حيث قال : " إني ذاهب إلى ربي " إنها الهجرة ، وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية ، هجرة يترك وراءه كل شيء من ماضي حياته ، يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه ، وكل ما يربطه بهذه الأرض وبهؤلاء الناس ، ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل ، ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شيء ، وطارحاً كل شيء ، مسلماً نفسه لربه لا يستبقي منها شيء موقن أن ربه سيهديه وسيرعى خطاه " (٣) .

وتلحظ في كلمة (سيهدين) الثقة واليقين فسين الاستقبال لتأكيد الوقوع في المستقبل والمضارع يفيد التجدد والاستمرار أي : تجدد الهداية واستمرارها ولذلك يقولون : " وبتّ القول بذلك لسبق الوعد ولفرط توكله ، أو للبناء على عادته تعالى معه في هدايته وإرشاده ، أو أنه أظهر

---

(١) الآيات ٩٩ ـ ١١٠ .

(٢) راجع الكشاف ٣ / ٣٤٧ ، والجمل ٣ / ٥٤٥ .

(٣) الظلال ٦ / ٢٩٩٤ .

بذلك توكله وتفويضه أمره إليه تعالى " [1] .

ولثقته في الله تعالى طلب منه هذا المطلب : " رب هب لي من الصالحين " وسيدنا إبراهيم عليه السلام لم يذكر الولد نصاً وإنما طلب الهبة فإنها في القرآن وكلام العرب غلب استعمالها مع العقلاء الأولاد وقيَّدها بقوله " من الصالحين " لأن هذا الوصف هو همَّهُ أن يكون هذا الولد موصوفاً بالصلاح لأنه مع الصلاح يتحقق كل شيء وبدونه لا يتحقق شيء ، وقد حذف ذكر الولد وأثبت صفته لذا تراهم يقولون " رب هب لي من الصالحين" أي ولداً من الصالحين وحذف لدلالة الهبة عليه [2] ، فَحَذْفُ الموصوف وبقاء صفته لقصد العناية بالصفة وهكذا عادة الأنبياء فسيدنا زكريا عليه السلام عندما طلب الولد ذكره بصفته التي من أجلها طلبه في قوله تعالى : " فهب لي من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا " [3] فالقصد إلى صفتَي الولاية والوراثة في الدين وأن يكون موصوفاً بالرضا ، وهذا يعني : أن الأنبياء والرسل إنما طلبوا الولد لقصد الدين والقيام به والعمل عليه .

وقد كانت إجابة الدعوة بالبشارة والنص صريحاً على الولد حتى تجيب آمال سيدنا إبراهيم عليه السلام وتحقق رغبته في العون على مشاق الرسالة وامتدادها : " فبشرناه بغلام حليم " ويأتي الأسلوب مصدراً بفاء التعقيب دلالة على سرعة الاستجابة وبلفظ البشارة التي لا تكون حقيقة إلا في الخير والتي انطوت على ثلاث بشارات على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليماً وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : " ستجدني إن شاء الله من الصابرين " ثم استسلم لذلك [4] .

ووصف الوليد بالحلم من قبيل المجاز المرسل ذي العلاقة المستقبلية لأنه في هذه السن لا يتبين حلمه من ظلمه ولا يتبين علمه من جهله أو غير ذلك من الصفات ، ولكنه إخبار من العليم.

ثم ن هذه الصفة " الحلم " تجدها قليلة حتى في وصف الأنبياء والرسل بل لم يوصف بها في القرآن الكريم غير سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، ووصف بها سيدنا شعيب عليه

---

(١) راجع : الكشاف ٣ / ٣٤٧ ، والجمل ٣ / ٥٤٥ .

(٢) راجع حاشية الشهاب الخفاجي ٧ / ٢٧٩ .

(٣) مريم ٥ ، ٦ .

(٤) الكشاف ٣ / ٣٤٧ .

السلام من قبل قومه تهكماً واستهزاءً في قوله تعالى : " قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ " [1] فهم استعاروا الحلم والرشد للسفه والغواية [2].

يقول الزمخشري : ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم وذلك لعزة وجوده ولقد نعت الله به إبراهيم في قوله : " إن إبراهيم لأواه حليم " [3] ، " إن إبراهيم لحليم أواه منيب " [4] لأن الحادثة شهدت بحلمهما جميعاً " [5] ومقولة الزمخشري هذا تحتاج إلى نظر فكون سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام هما اللذان نعتا بالحلم ليس معناه أن هذه الصفة لم تتخلّق بها بقية الرسل فقد وصف رسولنا صلى الله عليه وسلم بما هو أعظم من ذلك في قوله تعالى : " وإنك لعلى خلق عظيم " [6] والوصف بالخلق العظيم يدخل فيه الحلم وغيره وهذا لا يبيح للزمخشري أن يقول ما قال فمن يتخلق بالحلم إذا لم يتخلق به الرسل ؟ !!!

وعزة وجود الحلم ليست مع الرسل والأنبياء بل كانوا أحلم الناس وأوسعهم صدراً وأكثرهم عفواً والشواهد في كتب السيرة لا تحصى ثم إن تخصيص النبي أو الرسول بصفة من الصفات إنما هو إبراز لها والتنبيه عليها في هذا الموطن أو ذاك لظهورها وإلا فالأنبياء جميعاً الذين وصفوا أو لم يوصفوا مركوز في طبعهم كل هذه الصفات الحميدة فهم المصطفون الأخيار من قبله تعالى وإن وجد للزمخشري مندوحةً في قوله هذا فلأن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ولده فلم يتردد وعرض ذلك على ابنه إسماعيل فلم يتمرد ولم يتلجلج وكانت إجابته : " يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين " ، واستسلما لأمر الله ، وهذا موقف انعدم حدوثه في تاريخ الرسل ، فكان جزاؤهما هذا الوصف الذي لم يوصف به غيرهما . والله أعلم ،

---

(١) هود ٨٧ .

(٢) زاده ـ ٣ / ٦٠ .

(٣) التوبة ١١٤ .

(٤) هود ٧٥ .

(٥) الكشاف ٣ ، ٣٤٧ .

(٦) القلم ٤ .

الموطن الخامس

دعاء سيدنا إبراهيم في سورة الممتحنة

جاء هذا الموطن في قوله تعالى : " قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ " (١)

في هذه الآيات يضرب الله نموذجاً كاملاً وراقياً للمؤمنين بعد أن أمرهم بمعاداة الكافرين الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين هذا النموذج هو سيدنا إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة والذين آمنوا معه حيث تبرأوا من قومهم ومن عبادتهم وسيظلون على هذا التبرؤ حتى يؤمن قومهم بالله وحده ويتركوا ما عليه من عبادة غير الله ثم يعلن لهم أن الصلة التي تروها في استغفار إبراهيم لأبيه كانت بسبب هذا الوعد الذي وعد الوالد به ابنه بأنه سيدخل في دينه فلما تبين له أنه مصمم على عداوة الله تبرأ منه ، فليس في هذا الاستغفار قدوة ، وحين تبرأ سيدنا إبراهيم والذين معه من قومهم لجأوا إلى الله بهذا الدعاء الحار الذي يظهرون فيه التوكل على الله وتسليم أمورهم إليه تعالى (٢) .

هذه المعاني الجياشة والمطالب العالية جاءت في النظم القرآني مملوءة بالأسرار الدقيقة واللطائف الخفية مكسوَّة بلباس لا يخلق على مدى الزمان ، وإنما يزداد نصاعة وروعة على تعاقب القرون والأجيال ، وقبل أن نأخذ في تحليل هذا الموطن ينبغي الإشارة إلى ظاهرتين استرعت الانتباه ولفتت النظر، الظاهرة الأولى: لفظ " أسوة حسنة " تكرر في القرآن ثلاث مرات : مرة في الأحزاب ومرتين هنا ، الظاهرة الثانية : تأنيث الفعل : " كانت" وتذكيره " كان" .

---

(١) الممتحنة ٤ ــ ٦ .

(٢) راجع : تفسير ابن كثير ٤ / ٣٤٩ .

أمَّا عن الظاهرة الأولى فتجد التعبير بلفظ " الأسوة الحسنة " في حق إبراهيم عليه السلام وهذا معناه أنه نموذج عالٍ يقتدى به وأوضح مثل على معاداة الذين حاربوا الله ورسوله ويوصف بالأسوة الحسنة الذين آمنوا به وتابعوه في احتواء هذا الفعل وهذا الوصف ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات في سورة الأحزاب : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً " [1] ، وهذا الوصف خاص برسولنا صلى الله عليه وسلم وفيه النص عليه بصفته " في رسول الله " لتخصيصه بذلك لأن السياق فيه صلى الله عليه وسلم ، وفي سورة الممتحنة مرتين : " قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ " ، " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ " وسورة الأحزاب والممتحنة مدنيتان كما ذكر ذلك السيوطي وسورة الأحزاب متقدمة في النزول على سورة الممتحنة ، يقول : " ... ونزل بالمدينة " ويل للمطففين " والبقرة وآل عمران والأنفال والأحزاب والمائدة والممتحنة والنساء ... " [2] ، وقد اتفق المفسرون على أن قوله تعالى في سورة الممتحنة : " لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة " تأكيد لآية الممتحنة السابقة : " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه " أتى بها للمبالغة والتحريض على الحكم لمزيد الحس على التأسي بإبراهيم ولذلك صدَّره بالقسم وهو الغاية في التأكيد[3].

ونضيف أن هذه الآية ليست تأكيداً لآية الممتحنة السابقة فقط وإنما هي تأكيد لآية الأحزاب والممتحنة معاً ، والدليل على ذلك ، أن سيدنا إبراهيم والذين معه وصفوا بأنهم " أسوة حسنة " وصفاً مؤكداً ، ووصف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة في سورة الأحزاب ، وسورة الأحزاب متقدمة في النزول ، ولعل هذا يبين شيئاً من أسرار اختلاف الأسلوب في موضعيّ الممتحنة حيث جاءت الآية الأولى بتأنيث الفعل " كانت " وحذف لام القسم في " قد " والنص على الأسوة الحسنة باسمه العلم و" إبراهيم " معطوف عليه " الذين آمنوا معه " وجاءت آية الممتحنة الثانية :" لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة " والتي قالوا أنها تأكيد للأولى ، وهي متفقة في الأسلوب مع سورة الأحزاب ، ولا يوجد فارق بينها وبين سورة الأحزاب إلا

---

(١) الآية ٢١ .

(٢) الإتقان للسيوطي ١ / ١٠ .

(٣) راجع ابن كثير ٤ / ٣٤٩ ، والجمل ٤ / ٣٣٧ ، والكشاف ٤ / ٩١ .

بالإتيان بالضمير " فيهم " ولعل سر مجيء الضمير هنا هو أنه تقدم الإخبار بأن لهم أسوة حسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب ، وتقدم الإخبار أيضاً بأن لهم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، وهنا جاء الإخبار بالضمير " فيهم " لتكون الأسوة الحسنة شاملة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا إبراهيم عليه السلام والذين معه ويقوي هذا أن المفسرين يقولون في قوله تعالى : " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه " " والذين معه " المقصود به الأنبياء معاصروه أو كانوا قريباً من عصره والتأسّي بإبراهيم عليه السلام هو في التبرؤ من الشرك ، وهو في كل ملة وبرسولنا عليه الصلاة والسلام على الإطلاق في العقائد وأحكام الشرع " [1] وهذا يؤكد أن القرآن الكريم وحدة واحدة لا تنفصم عراه وأن سوره وآياته شديدة الارتباط والتآخي والتناسب فهو سلسلة متصلة الحلقات مترابطة الأجزاء فما يكون مطلقاً هنا يكون مقيداً هناك ، وما يكون مجملاً في موضع يكون موضحاً في موضع آخر ، وهذا الاجتهاد لا يخالف قواعد العربية ، فمن البدهي أن الضمير إما أن يعود إلى أقرب مذكور ، وإما أن يعود إلى المشهور ففي عوده على إبراهيم عليه السلام والذين معه عود لأقرب مذكور وفي عوده على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عود إلى المشهور وهل أشهر من خاتم الأنبياء المنزل عليه القرآن ؟ !!! وفي عوده عليهما عودٌ على المذكور والمشهور فيكون الضمير " فيهم " قد شمل المذكور وهو سيدنا إبراهيم والمشهور هو سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام .

وبعد أن اجتهدت في إثبات ما قلت وانتهيت من تبييضه ولست على يقين من صحة ما أقول رأيت الكرماني ينص على ذلك نصاً بل إنه خصص آية الممتحنة الثانية في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال : " وإنما كرر لأن الأول في القول ، والثاني في الفعل وقيل الأول في إبراهيم

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٠ / ١٥٤ .

والثاني في محمد صلى الله عليه وسلم " [1].

أما عن الظاهرة الثانية وهي تذكير الفعل " كان " في سورة الأحزاب : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " وفي الآية الثانية من سورة الممتحنة : " لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة " وتأنيثه في الآية الأولى في سورة الممتحنة : " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه " فإن الفاعل في المواطن الثلاثة " أسوة حسنة " مؤنث مجازي والتاء لا تلزمه إلا في موطن واحد وهو إذا كان فاعله ضميراً متصلاً كقولك : الشمس طلعت والعينان نظرتا فيمتنع الشمس طلع والعينان نظرا [2] .

والموطن الذي معنا ليس من هذا القبيل فالفاعل " أسوة " ظاهر وقد فصل بينه وبين الفعل في موطني التذكير بقوله " لكم في رسول الله " وبقوله " لكم فيهم " وفي موطن التأنيث بالجار والمجرور فقط " لكم " والملاحظ أن فاصل التذكير أكثر من فاصل التأنيث والنحاة يقولون " فإن حجز بين الفعل وفاعله حاجز كان حذف التاء حسناً وكلما كثرت الحواجز كان حذفها أحسن " [3] ويؤكد هذا القول الكرماني فيقول : أنث الفعل الأول مع الحائل وذكّر الثاني مع كثرة الحوائل [4] .

وقد ورد حذف التاء وإثباته مع وجود الفاصل المتفق ففي قوله تعالى في قصة صالح : " وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ " [5] ، حذفت التاء ، وفي قصة شعيب

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص ٢٣٦ ت : عبد القادر أحمد عطا ـ دار الفضيلة ـ بدون تاريخ .

(٢) راجع : حاشية الصبان على الأشموني ٢ / ٥١ ، دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ بدون .

(٣) انظر : نتائج الفكر في النحو للسهيلي ص ١٣٠ ت ـ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط / أولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

(٤) انظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ت ـ الدكتور / سيد الجميلي عدد ذي الحجة ١٤١٤ هـ ، ص / ٢٦٧ .

(٥) هود ٦٧ .

أُثبتت في قوله تعالى : " وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ " (١) وقد أجاب الكرماني عن ذلك فقال : " إن الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخزي إذ كانت منتظمة بقوله تعالى : " وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ " (٢) ، فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية فقوى التذكير بخلاف الآية الأخرى " (٣) .

إلا أنه يبقى هذا الموضوع " تأنيث الفعل وتذكيره " يحتاج إلى جمع مواطنه في القرآن وتدقيق النظر وإبراز بعض الأسرار والنظر في السياق أدعى إلى إدراك شيء من ذلك ، والله الموفق والمعين (٤) .

والآن حان النظر في نظم الآيات ودلالتها فقوله " أسوة " إمَّا أن يكون معناها خصلة حسنة من حقها أن يُؤْتَسَى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد وغير ذلك ، وعلى هذا فإن " أسوة " وإن كان اسماً موضوعاً موضع المصدر وهو الاتساء بمعنى الاقتداء للمبالغة إلا أنه استعمل ها هنا بمعنى ما حقه أن يُؤْتَسَى به والمعنى : لقد كان لكم فيه ما من حقه أن يقتدى به ، وإمَّا أن يكون معناها : أنه صلى الله عليه وسلم في نفسه قدوة ويكون في الكلام صنعة التجريد وهو : أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه (٥) فتكون كلمة " في " في قوله تعالى : " في رسول الله " تجريدية وتجرد من نفسه الزاكية ما هو قدوه ، كما في قوله تعالى : " لهم فيها دار الخلد " (٦) مع أن الجنة في نفسها دار الخلد جرَّد منها أخرى مثلها في كونها دار الخلد (٧) ، وقوله : " والذين معه " يحتمل أن يكون الذين معه هم المؤمنون الذين اتبعوا دعوته

---

(١) هود ٩٤ .

(٢) هود ٦٦ .

(٣) نتائج الفكر في النحو للسهيلي ص ١٣٢ .

(٤) وقد سجل هذا الموضوع " تذكير الفعل وتأنيثه في القرآن الكريم دراسة بلاغية " رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بأسيوط .

(٥) انظر: الإيضاح للخطيب القزويني ٣ /٥١٢ ، ت ـ خفاجي ط/ ٣، ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ، منشورات دار الكتاب اللبناني .

(٦) فصلت ٢٨ .

(٧) راجع الألوسي ١٤ / ٤٧٥ ، وزاده ـ ٤ / ٥٨ ، والشهاب ٧ / ٤٧٥ .

وآمنوا برسالته أو الأنبياء الذين عاصروه أو كانوا قريباً من عصره [١] .

ثم هذا التعبير " إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا " وما فيه من قوة تصوير براءتهم من قومهم ومن عبادتهم وما فيه من إطناب لتأكيد هذا التبرؤ حيث تبرؤوا منهم والبراءة ــ كما في الراغب ــ التبري والتفصّي مما يُكْره مجاورته وهذا معناه أنه تنزّه وتباعد عن قومه وعن عبادتهم وقد لُوحظ أن هذا اللفظ " بريء " ومشتقاته قد استعمل كثيراً في حق إبراهيم عليه السلام مثل قوله تعالى : " فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه " [٢] " فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون " [٣] ، " وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون " [٤] وكل هذه المواطن جاءت في محاربة الإشراك بالله والدعوة إلى عبادته وتوحيده ، فكانت هذه اللفظة لبنة في أسلوب يصف سيدنا إبراهيم بتنزهه عن الشرك ، وبُعده عن جهالة قومه ، وشدة إخلاصه وقوة يقينه ، وصلابته في دين الله ، كما استعملت في حق بقية الرسل لهذا الغرض نفسه .

ثم يأتي قوله " كفرنا بكم " وهو كناية عن عدم الاعتداد بهم ليعمهم وآلهتهم وتلمح في العبارة قوة الغضب والمقت الخارجة مع الألفاظ بهذه التأكيدات والتكرار فقولهم " إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله " جمل ثلاث تدور حول مضمون واحد وهو إنكارهم لما يعبدون من دون الله فما في نفوسهم من الغضب لله ومنهم والمقت لهم لا تكفيه عبارة واحدة ، ولا تطفئ نار قلوبهم وكراهيتهم لهم فجاءت هذه الجمل متوالية متتابعة تحكي شعور المؤمنين وتنقل أحاسيسهم تجاه من يعبد غير الله ثم جاءت جملة " وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده " تواصل رسم مشاعرهم وتصويرها ، والعداوة والبغضاء معانٍ لا تظهر وإنما تظهر أسبابها ولكن صورت بهذه الصورة للمبالغة في الشدة ثم إن لفظ " العداوة والبغضاء " ليسا مترادفين وإنما العداوة معناها : المباينة في الأفعال بأن يعدو كل على الآخر ، والبغضاء : هي المباينة بالقلوب

---

(١) راجع : البحر المحيط ١٠ / ١٥٤ ، والقرطبي ٩ / ٦٥٣ ، ت . إبراهيم محمد الجمل ، دار القلم للتراث ــ بدون تاريخ .

(٢) التوبة ١١٤ .

(٣) الأنعام ٧٨ .

(٤) الزخرف ٢٦ .

للبغض العظيم ولما كان ذلك قد يكون سريع الزوال قالوا " أبدا " أي على الدوام [1] ومعنى هذا أن القطيعة بينهم بلغت الغاية ، ويفهم من قوله " حتى تؤمنوا بالله وحده " أن دوام العداوة والبغضاء أو زوالهما راجع للمشركين لأن هذه العداوة ليست ناشئة عن خلاف في الرأي وإنما هي ناشئة عن الكفر بالله فلا تنقطع إلا بالإيمان ، ويأتي لفظ " وحده " ليحدد صيغة الإيمان وكيفيته فليس الإيمان بالله مع المداومة على عبادة الأصنام يقرب بين الفريقين ويزيل العداوة والبغضاء من قلوب المؤمنين تجاههم بل حتى يؤمنوا بالله وحده ، فقد كان منهم من يعبد الله ويشرك معه غيره لذا جاءت هذه الكلمة لتقيد العبادة بالله حيث لا تنفع عبادة الله مع عبادة الأوثان . وقد كانوا يقولون : " مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى " [2]، وحكى القرآن عنهم : " وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ " [3] ويؤكد هذا لفظ " حتى " إذ يفهم منه أن نهاية العداوة والبغضاء هي بداية إيمانهم بالله وحده .

ثم يأتي هذا الاستثناء " إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك " ، فإبراهيم والذين معه قدوة حسنة في تصرفاتهم وأفعالهم ينبغي الاقتداء بها والسير على منوالها ما عدا هذا التصرف وهو قوله لأبيه " لأستغفرن لك " فهذا مما لا يجوز الاقتداء به لأن له ظروفاً وملابسات فقد كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله وقوله : " وما أملك لك من الله من شيء " من جملة قول إبراهيم لأبيه الذي استثناه الله تعالى مما يُؤْتَسَى به من أقواله وأفعاله فهو معطوف على المستثنى وظاهر هذا أن في الأسلوب إشكال لأن هذه الجملة : " وما أملك لك من الله من شيء " ثابتة لإبراهيم ولغيره فيتأسى به فيه ، وعطفه على المستثنى يقتضي ألا يتأسى به فيه ، وأنه لا يجوز لغيره ، وهذا ليس بصحيح إذ قوله : " وما أملك لك من الله من شيء " قضية عامة صحيحة وكلام حسن يحسن أن يُتأسَّى به وقد خَرَّجوا هذا على : أنه لا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أجزائه أي أن هذه الجملة ليست مقصودة

---

(١) راجع : حاشية الجمل ٤ / ٤٢٦ ، والكشاف ٤ / ٩٠ .

(٢) الزمر ٣ .

(٣) لقمان ٢٥ .

بالاستثناء فكأنه قال لأستغفرن لك وما في طاقتي إلا الاستغفار [١] ، وقد جعل الشيخ الجمل " وما أملك لك من الله من شيء " كناية عن أنه لا يملك له غير الاستغفار أي أن هذه الجملة استعملت في غير معناها الوضعي وهو أنه لا يمكن له غير الاستغفار فهو من قبيل الكناية والمعنى الظاهر هو أنه يمكن أن يُتَأسَّى بسيدنا إبراهيم في هذا القول ولكن المعنى الظاهر غير مقصود [٢] .

ثم يأتي قوله " ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم " وتكرير النداء في الدعاء للمبالغة في التضرع والجؤار ، وهو إما أن يكون من قول سيدنا إبراهيم متصلاً بما قبل الاستثناء وهو من جملة ما يُتَأَسَّى به فيه ، وفصل بينهما بالاستثناء اعتناءً بالاستثناء ولقربه من المستثنى منه ، أو أمراً من الله للمؤمنين أي : قولوا ربنا عليك توكلنا ... علمهم بذلك قطع العلائق التي بينهم وبين الكفار [٣] وقد رجح أبو السعود الوجه الأول وضعَّف الثاني لأن النظم الكريم لا يساعد عليه [٤] .

وقد جعله الشهاب الخفاجي دعاءً متعدداً لا ارتباط بكل بسابقه كالجمل المعدودة ولا ملابسة بينهما سوى الدعاء [٥] وقوله : " ولا ملابسة بينهما سوى الدعاء " أي : لا صلة بين الدعاء الأول " ربنا عليك توكلنا " ، والثاني : " ربنا لا تجعلنا فتنة ... " سوى أنهما من جملة الدعاء وهذا وحده كاف في صحة المناسبة وقوة الربط وتمام الصلة لأن الداعي ليس مطلوباً منه أن يحدد موضوعاً أو يعين غرضاً وإنما يدعو بما شاء من الأشياء في أي وقت شاء ، وفي قوله : " ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا " تجد لفظ " فتنة " إمَّا أن يكون بمعنى اسم الفاعل أي : لا تجعلنا قاتنين لهم وسبباً لافتتانهم ومزيد كفرهم أو بمعنى المفعول أي : لا تجعلنا مفتونين بهم بأن تسلطهم علينا فيفتنوننا بعذاب لا نتحمله وعندها يقولون إنَّا غلبناهم لأنا على الحق وهم على الباطل [٦] وبعض المفسرين لا يقبلون تخريج الآية على المعنى الأول إذ يرون أن المسلم لا يفتن الكافر فالكلام عندهم كناية لأنه أريد به لازم معناه ويوضحون المعنى الثاني ويقولون : " وهذا المعنى هو المراد

---

(١) راجع : الكشاف ٤ / ٩١ ، وزاده ـ ٤ / ٤٨٣ ، وأبا السعود ٥ / ٣١٥ ، والشهاب ٩ / ١٥٦ .

(٢) راجع : حاشية الجمل ٤ / ٣٢٦ .

(٣) البحر المحيط ١٠ / ١٥٥ .

(٤) أبو السعود ٥ / ٣١٥ .

(٥) حاشية الشهاب ٩ / ١٥٧ .

(٦) راجع : ابن عطية ٥ / ٢٩٦ ، والجمل ٤ / ٣٢٧ ، والبيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٩ / ١٥٧ .

من اللفظ " [1] وهم رفضوا المعنى الأول ربما لأن زمنهم لم يكن يصدر من المؤمن ما يكون سبباً لافتتان الكافر به ويكون صداً له عن الدخول في الإسلام ، أو أنهم رأوا أن طبيعة المؤمن الكامل لا ينبغي أن يكون كذلك ورأوا أن حمل اللفظ على اسم المفعول أولى لأن حمل اللفظ على اسم الفاعل لا تصح إرادته ولنا أن نتساءل : إذا كان اللفظ لا يصح حمله على اسم الفاعل فلماذا جاء اللفظ يحتمله ؟ !!! أليس من الأولى أن يترك القول بأنه لا تصح إرادته وبأن المعنى الثاني هو المراد من اللفظ بهذا التحديد والتنصيص ، لأن الخالق أدرى بطبيعة خلقه ويعلم أنه سيأتي أناسٌ مسلمون ويكونون فتنة وسبباً للصد عن الدين ولا بأس أن نعرض ما سمعناه من الروايات تؤكد ما ذهبنا إليه وهو أن أحد الغربيين قرأ عن الإسلام وتعاليمه فانشرح له صدره ، واطمأن عقله إلى صحة هذا الدين ورأى جمال تعاليمه وقيمه فأسلم ، ولما زار إحدى البلاد الإسلامية ورأى ما فيها من الفساد قال : " الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين " ، أليس هذا هو معنى الفتنة على اسم الفاعل ثم ما نشاهده ونحن نعيش في بلد مسلم من الخلاعة والمجون التي تكون سبباً لصد الشباب عن الدين وتضييع أوقاتهم فيما لا يفيد وأفعال المسلمين الآن المخالفة ، وما يحدث من انتهاك لحرمات الله تجعلنا نراجع علماءنا الأجلاء قائلين : إنه لا يمنع أن يكون المعنى على اسم الفاعل مستقيماً لأنه قد يحدث أن المسلم قد يفتن الكافر الذي يحاول أن يراجع نفسه وتظهر أمامه شواهد صدق الإسلام ومن ثمّ طلب المؤمنون في دعائهم ألا يجعلهم فتنة للذين كفروا وهذا من بين إعجاز القرآن فما يراه العلماء لا يحتمله النص في عصرٍ لاستحالة وجوده ربما يحدث في عصرٍ آخر فكان التعبير بلفظ " فتنة " هكذا يحتمل بأن يكون بمعنى اسم الفاعل وبمعنى اسم المفعول مع استقامة المعنى على كليهما .

ثم يأتي قوله : " لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة " مؤكداً للمبالغة في التحريض على الحكم وقوله : " لمن كان يرجو الله واليوم الآخر " بدل اشتمال من قوله " لكم " وفائدة هذا البدل الإيذان بأنّ من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم ، وأن تركه من مخايل عدم

---

(١) راجع : ابن عطية ٥ / ٢٩٦ ، وحاشية الجمل ٤ / ٣٢٧ .

الإيمان كما ينبئ عنه قوله : " ومن يتول " فإنه مما يتوعد بأمثاله الكفرة [1] والجملة الشرطية في قوله : " ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد " جيء بها للتهديد والوعيد لمن أعرض عن هذه الأسوة الحسنة ولم يقتد بها ، ولذلك حذف جواب الشرط وجيء بقوله : " فإن الله هو الغني الحميد " تعليل لجواب الشرط المحذوف والتقدير : فإن وبال توليه على نفسه لأن الله هو الغني الحميد [2] ، ومجيء هذه الجملة أبلغ من إثبات جواب الشرط لأنها تفهم معنى الجواب وزيادة حيث أتى بلفظ الجلالة " الله " ومجيئه يكون غاية في الوعد أو الوعيد ثم أتى بصفتين من صفاته تعالى " الغني الحميد " ومعنى الغني : هو الذي لا يحتاج إلى أحد في شيء وكل أحد محتاج إليه وهذا هو الغني المطلق ولا يشارك الله تعالى فيه غيره ، والحميد بمعنى : المحمود على كل حال [3] وفي هذه المعاني من الوعيد والتهديد ما فيها لمن يتولى عن التأسي بالأنبياء وسنة المؤمنين ويوالي الكفار [4] . والله أعلى وأعلم .

---

(١) تفسير أبو السعود ٥ / ٣١٧ .

(٢) راجع حاشية الجمل ٤ / ٣٢٦ .

(٣) اللسان مادة غنا وحمد .

(٤) راجع : زاده ـ ٤ / ٤٨٤ .

أهم المصادر والمراجع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ـ المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ ١٩٧٣ م .

٢ ـ البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ـ دار الفضيلة ، بدون تاريخ .

٣ ـ أسلوب الرجاء في القرآن للباحث ، مطبعة دار الهلال بأسيوط ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٤ ـ الانتصاف لأحمد ابن المنير بهامش الكشاف ، دار الفكر ـ بدون .

٥ ـ الإيضاح للخطيب القزويني ، تحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجي ، ط / الثالثة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

٦ ـ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، بدون .

٧ ـ تفسير ابن عطية الأندلسي [المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز] تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط / أولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

٨ ـ تفسير ابن كثير ـ دار المنار ، بدون تاريخ .

٩ ـ تفسير أبي السعود [إرشاد العقل السليم] تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مطبعة السعادة ، الناشر مكتبة الرياض الحديثة ، بالرياض .

ـ تفسير أبي السعود [إرشاد العقل السليم ط/ ثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠ م] .

١٠ ـ تفسير الآلوسي [روح المعاني] تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الغد العربي ط / أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م .

١١ ـ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي بعناية الشيخ زهير جعيد ـ دار الفكر ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

١٢ ـ تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشيخ زادة ، المكتبة الإسلامية / تركيا ـ بدون تاريخ .

١٣ ـ تفسير الجلالين بهامش حاشية الجمل مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ بدون تاريخ .

١٤ ـ تفسير الرازي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط/ أولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

١٥ ـ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار للأستاذ / محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ـ بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م.

١٦ ـ تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] تحقيق إبراهيم محمد الجمل ـ دار القلم للتراث ، بدون تاريخ .

١٧ ـ تفسير الكشاف للزمخشري ـ دار الفكر ، بدون تاريخ .

١٨ ـ تفسير سورتي الفاتحة والبقرة ، د / محمد سيد طنطاوي ، مطبعة السعادة سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

١٩ ـ تفسير في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الطبعة الشرعية الثالثة عشرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، دار الشروق .

٢٠ ـ حاشية الجمل على تفسير الجلالين ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ بدون تاريخ .

٢١ ـ حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ضبط وتخريج الشيخ / عبد الرزاق المهدي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط . أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

٢٢ ـ حاشية الشيخ زادة على تفسير الإمام البيضاوي ، المكتبة الإسلامية ـ تركيا ، بدون تاريخ .

٢٣ ـ دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ـ مطبعة المدني ، ط . ثانية ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م .

٢٤ ـ دلالة الجملة الاسمية والفعلية بين الإقرار والإنكار ـ للباحث مطبعة الصفا والمروة ـ ط/ أولى سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٥ ـ عروس الأفراح للسبكي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، بدون .

٢٦ ـ فتح القدير للشوكاني ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٢٧ ـ لسان العرب لابن منظور ، دار المعارف ـ بدون .

٢٨ ـ المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم للدكتور/ عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ .

٢٩ ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ضبط أحمد شمس الدين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط . أولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .

٣٠ ـ ملاك التأويل للغرناطي ت : سعيد الفلاح ط أولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م ـ دار الغد الإسلامي .

٣١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث ـ القاهرة ـ

ط/ ثانية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٣٢ ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ط /أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م ، الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

٣٣ ـ من بلاغة القرآن للدكتور / أحمد بدوي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ بدون تاريخ.

٣٤ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط / أولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .